
في مهبّ القدر

الطبعة الأولى

1439 هـ

2018 م

اسم الكتاب: في مهبّ القدر

التأليف: غادة مسعودي

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 224 صفحة

عدد الملازم: 14 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

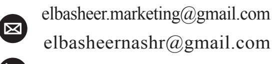
عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2017 / 28304

الترقيم الدولي: 5 - 669 - 278 - 977 - 978

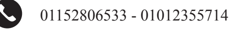


دار البشير للثقافة والعلوم



elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



01152806533 - 01012355714



في مهبّ القدر

تأليف

غادة مسعودي





الإهداء

إلى الوالديْن الكريمين.. شكرًا على كلّ شيء.

إلى كلّ الأساتذة والمعلّمين الذين مرّوا بحياتي.. تحيّة إجلالٍ وإكبارٍ لكم.

إلى صديقي ورفيقِ دربي «حسام الدين لفات».. دمتَ سندي.

إلى صديقتي الغالية وتوأم روحي «سرور»، وإلى روح والدِها الطيّب «منير العلوي» رحمَه الله وأسكنه فردوسَه.



اجتازت أروقة المشْفى متثاقلة الخطى، غير عابئة بتأخّر الوقت، استوقفها انعكاس صورتها على إحدى المرايا المعلّقة بإهمال على الجدار، تمعّنت في شحوب وجهها، والذبول البارز في عينيها.. تعلم أنها أرهقت نفسها بالتفكير طوال هذه الأيام، لكنْ لم تبال، لم يعدْ مظهرها من اهتماماتِها منذ زمن، ابتسمت هازئة ثمّ مضت..

دخلت مكتب عمر لتجده جالسًا إلى شرفة مكتبه، يرقب المدينة وقد بدأتْ تدبّ إليها الحركة شيئًا فشيئًا.. الكلّ يتزاحم، يلهثُ وراء الحياة، نفس الوجوه تقريبًا كلّ يوم، نفس الخطوات تتسارع على الرصيف.. أصوات الدكاكين تفتح الواحدة تلو الأخرى بنسقٍ مرتّب كلّ يوم لتشكّل سيمفونيات حفظها عمر، أصواتُ الباعة على الرصيف تتعالى في تحدٍّ، ثمّ ما لبث أن يرى أبوابَ المدارس تفتح ويتسابق الصغار بحركاتٍ بريئة إلى الداخل تطغى أصوات ضحكاتهم على كلّ الشارع فتشكّل اللحن الأجمل بينهم جميعًا، فيبتسم عمر في نشوة، وقد ارتحل عقلُه إلى الماضي إلى أيامٍ خلت، ويرى ذكريات الطفولة تتلوّن أمامه – تمضي الأيام بسرعة كالنسيم يهبّ على الشجر فلا يترك له أثرًا، كحبّات رمل تنفلت بين الأصابع لا نستطيع القبضَ عليها، أو حتى إعادتها، وعيش تلك اللحظات التي انتشتْ فيها أرواحنا من جديد...

تلك الأوقات التي أخذت من عواطفنا، وجعلت قلوبنا تعتلج بمزيجٍ من النشوة العارمة وطروب الفرح والأمل..

لكنْ شاءت الأقدار أنّ ما مضى من أعمارنا من سعادة مهما تعلّقت به أرواحنا؛ لن نستعيد منه سوى الذكريات، وشاءت أن تجعل من ذكرياتنا هذه النخبة التي اختارتها عقولنا من أجمل اللّحظات؛ أن تصير ملجئًا، عالمًا يسقي فينا الأمل، ويعيد فينا الطمأنينة كلّما صفعتنا الأيام. فأيّ قدرة لتلك الذكريات في إحيائنا!!

في أن تسقي ظمأنا للفرح؟

في أن تخفّف خوفنا من المجهول؟

نلتمس فيها الروح والانبساط، فيستيقظ الأملُ باسمًا من وراء الضلوع..

نعيد تلوينَها بألوان الأمل التي تهدينا إيّاها ذكرياتنا كلّما زرناها...

فما تلبث أن تعودَ من جديد، قويّة، طموحة، عنيدة..

وقد تدرّعت من قسوة الواقع، واستعدّت لنخوض الحرب ضدّ كلّ ابتلاء..

يومًا ما، سيشرق فينا الفرح من جديد.. يومًا ما سنبكي فرحًا لا خوفًا ويأسًا.. وكما عسعسَ الظلام سنتنفس هواء الفجر يومًا.. السعادة التي خِلْناها دفنت مع الذكريات ستحيا من جديد.. يومًا ما...

كان يهتف عمر لنفسه كأنما يحقنُها بالأمل حينما قاطعته سلمى، وقد دخلت مكتبه:

- «شاردٌ أنت كعادتك».

- «ومتطفلةٌ أنت كعادتك» قالها مداعبًا، فأجابته بابتسامة متكلّفة.

عمر: «ظننت أنك لن تأتي اليوم».

سلمى: «الخادمة اليوم في أجازة لم تعدّ القهوة فجئتُ على عجل لأشرب قهوتك قبل أن تبرد».

أجابته بدلال، وقد أخذت فنجانَ قهوته من فوق مكتبه ترتشفه، وأردفت: لم أستطعِ النوم البارحة.

عمر: تفكّرين فيها، صح؟

سلمى: بل لم تغادر بالي من يوم جاءت المشفى.

عمر: سلمى، أعلم سرّ تعلقك بها، لكن ارحمي نفسَك، أرجوك لا تحمّليها ما لا طاقة لك به، لا تنبشي الماضي، أنت تضعين يدَك على الجرح مرة أخرى.

سلمى: عمر، أنا أعلم جيدًا ماذا أفعل، أشعر أنّي مسئولة عن هذه الفتاة، لن أتركها تموت أمام عيني.

عمر: سلمى، إنها هنا منذ ستّة أشهر، عينان معلّقتان في السراب، ووجهٌ خالٍ من أي تعبير.. إنها عبارة عن جثة، لم تنفع معها كلّ الأدوية وجلسات العلاج، إنها لا تتجاوب معنا أبدًا.

سلمى: عمر، أنت لا تفهم، لن أشفى من الماضي أبدًا إلّا عندما ترجع فيها الروح، عندها فقط سأشعر أنّي أحيا من جديد. طيفها يحاصرني كلّ ليلة، أتذكُر كيف جئت أول مرّة للمستشفى؟ كنت أنا أيضًا يومًا على ذلك السرير، كانت الوحيدة تصفع قلبي.. وأغصّ بالوجع حدّ الاختناق لكني لمّا مددت يدي وجدت مَن يشدّها ويعيدني إلى الحياة، ثمّ إني وجدت نفسي بين آهاتِ المرضى بين أنّات النفوس أطبطبُ على جراحهم كما لو كانت جراحي أطيّبها؛ فأشفى أنا.

عمر نهضَ من مكانه، وجلس أمامها، بدا صوته رقيقًا:

– "أنتِ كنت قوية، كنتِ محاربة شرسة، أنتِ مَن ساعدت نفسك ولم يساعدك أحد..

ابتسمت في خجل، وهمّت أن تقول شيئًا، فقاطعها وقد عاد إلى نبرته الصارمة:

– «ولكنّك لمّا جئت هنا كنت تحاربين الألم واليأس، كنت تقاومين وتبحثين عن الخيط الذي يعيدك للنور، وكذلك كلّ المرضى الذين استطاعوا أن يقفوا من جديد ويدمّروا حواجز الضعف والعجز لمّا وجدوا مَن يمدّ لهم

يد العون تشبّثوا بها، أمّا هي فتسبح وحدَها في العتمة.. لا يشغل بالها سوى فكرة واحدة هي الموت. قطعت كلّ حبلٍ يمدّ لها للنجاة، أخشى أن يعقب اهتمامك الكبير لها خيبةٌ قد تعصف بكِ إلى قاع البئر مجددًا»..

سلمى: لا تقلق يا عمر، أنا مضطرة لا مخيّرة، لا يمكنني أن أتراجع؛ فتلك الفتاة تعني لي الكثير.. ربما سأسامح نفسي أن أعطيتها ما عجزت أن أمنحه لغيرها منذ زمن».

أحسّت أنها قد تبكي إن واصلت حديثها؛ فودّعته واتجهت إلى تلك الغرفة التي منذ ستة أشهر لا تزال تنتابُها مشاعر عصيّة على الوصف كلّما وقفت أمام بابها؛ الخوف، والشفقة، والحنين..

دخلت لترى تلك الفتاة شاخصة في اللاشيء، كأنما نزعت منها الحياة دفعةً واحدة، كأنما استأصلت حواسّها واحدة تلو الأخرى بلا رحمة، وظلّت سجينة بين الموت والحياة.. جسد أنهكه التعب.. برزت عظامه.. لم تظهر منه سوى عينين ترى فيهما لونَ الموت.. لم تكن تعلم قبلها أنّ للموت لونًا.

ودّت لو فقط تعلم بماذا تفكّر؟ لو كانت أصلًا تفكّر!! شعرت بها تحترق من الداخل كما احترقت هي يومًا..

فتاة في ربيع العمر لم يُخفِ لونُ الحزن القائم على وجهها جمالًا كان يتوّجها يومًا..

شعرت سلمى بغصّة تنبت في حلقها لم تستطعْ تجاوزها، حاولت ابتلاعها فانحبس الرّيق في حلقها، وتسارعت دموعها..

كان منظر الفتاة يثير الشفقة، أيقظ في نفسِها أحاسيس دفنتها منذ سنوات.. رأت الماضي أمام عينيها كتلةً من الحزن على هيئة فتاة، تستجدي الموت بعينيها، فلا تجده.. وما أسوأ من الموت سوى انتظاره.. لقد منعوها من الانتحار مرارًا، لم تجدْ أيّة وسيلة سوى أن تقتل نفسها في العدم، أن تغوص في وحدتها وتنعزل عن الحياة.

أن تشعلَ في داخلها حروبًا لا تخمد نارُها علّها تقتلها يومًا وتستريح..

وخرجت من صدر سلمى تنهيدةٌ كادت تقطع جسدها، أحسّت بوجع ينهش لحمها، ولم تستطع التقدم نحوها.. تقلّصت عضلاتها ولم تستجبْ لها حين أرادت الدخول، فعادت مستسلمة إلى بيتها..

ارتمت على سريرها، وطفقت تبكي بمرارة، بكاءً طال عهدها به.. ولم تشعر إلّا وقد استيقظت في صباح اليوم الموالي.

أحسّت بصداع حادّ وبقايا دموع علقت على أهدابها، قامت متثاقلة، توضّأت، واتجهت إلى قبلتها وسجدت طويلًا.. لم تتذكر متى صلّت آخر مرة، لكنها تتذكّر أنها مدّة طويلة.. منذ فقدت الرغبة لكلّ شيء، وانغمست في الحياة التي فُرضت عليها.

أحسّت أنها أزالت كلّ ما بداخلها، وكأنّما تذكّرت أمرًا هامًّا أسرعت إلى هاتفها واتصلت بالدكتور.. عمر: السلام عليكم.. كيف حالك يا سلمى؟ لقد اتصلت بك مرارًا، كان هاتفك مغلقًا عساكِ بخير لمَ لمْ تأتِ اليوم؟

سلمى: لا تقلق يا عمر، شعرت بصداع خفيف.

عمر في جزع: هل أرسلُ لك الطبيب؟ لمَ لمْ تتّصلي بي؟

سلمى: لا.. لا داعي أنا بخير متشكرة. عمر، أرجوك هل يمكن أن تمدّني بعنوان المريضة جنان؟ لقد تركت خالتها عنوانَ بيتها، هل تعطيني إيّاه؟

عمر: حسنًا يا سلمى، سأرسله إليك في رسالة، أخبريني أولًا ما الذي تريدينه من عائلتها؟

سلمى: سأمرّ عليك في المساء يا عمر، سنتحدّث، المهمّ أرسله لي الآن لو سمحت.

عمر: كما تريدين. لكن أرجوك لا تكلّفي نفسك ما لا طاقة لك به.. عديني أولًا.

سلمى: لا تقلق يا عمر، لن أنسى لك وقوفَك إلى جانبي حتى الآن، شكرًا.

عمر: بل أنتِ مَن تستحقين الشكر على كلّ جهودك عزيزتي، أراك مساء.

دوّنت العنوان، ومضت محاولة طردَ الخوف والاضطراب اللذيْن داهماها كلّما تذكّرت أنّها قد انعزلت في عالمها بقوة لدرجة باتت تشكّ في مقدرتها على التحدّث مع الغرباء.

توقّفت أمام بيت صغير، في حيّ متواضع، نظرت إلى العنوان جيدًا، ثمّ توجّهت نحو بيت خالة جنان التي علمت من عمر أنّها مقعدة وتعيش مع أمّها جدّة جنان. صعدت الدرج وقلبُها يخفق بسرعة، طرقت البابَ ففتحت لها امرأةٌ مقعدة رغم إعاقتها إلّا أنها رأتْ فيها ملامحَ طيبة شجّعتها.

«مرحبًا، أنا سلمى الطبيبة النفسيّة المشرفة على حالة جنان، هل يمكننا التحدّث قليلًا؟».

أحسّت بأسارير المرأة تنفرج، وبدّدت حيرتها ابتسامة عريضة ملأت وجهها، وقالت لها: بالطبع، تفضّلي سيدتي.

دخلت البيت، وجلست معها في الصالون، كان البيت– رغمَ بساطته– في غاية النظام، لا يصدق مَن يراه أول مرّة أنه لامرأةٍ مقعدة وأمّها العجوز، أحسّت بارتياح كبير بينهم أزالَ القلق الذي استبدّها وهي قادمة. ذهبت الجدّة لتعدّ الشاي، بينما بقيت سلمى مع خالة جنان وهي لا تعرف كيف تبدأ الحديث، لكن هذه الأخيرة قطعت شرودَها تسألها عن أحوال الفتاة، قرأت في عينيها خوفًا ولوعة على ابنة أختها ما لبثت أن صاحبتْ تساؤلاتها دموعٌ

لم تقوَ على حبسها: أرجوك دكتورة، كيف حالها؟ لقد منعنا من زيارتها، هذا لا يطاقُ حقًّا.

لم تدرِ كيف تواسيها.. وضعت يدَها على كتفها برفق وأردفت: أرجوك، لا تقلقي سوف تكون بخير، أنا أعدك.

«أملنا في الله كبير يا ابنتي، لولا إيماننا لما عشنا حتى هذه اللّحظة بعد كلّ الذي مرّ بنا» قاطعتها المرأة المسنّة التي أتت بالشاي.

تنحنحت قليلًا، ثمّ تكلّمت: لن أطيل عليكما، أنا هنا من أجل جنان، أريد أن أعرف هواياتها؛ هذا سيساعدنا كثيرًا في العلاج.

– القراءة.. كانت ترتمي في أحضان الكتب كلّما اسودّ في وجهها العالم، كما كانت تكتب أيضًا، كانت تنفّس عن وجعها بالكتابة، كلّما أحسّت بالقلق أو زارها الحزن؛ أفرغته على الورق. كانت هذه عادتها منذ توفّيت أمّها، رحمها الله، واستطاعت أن تتجاوز الصدمة بها. أجابتها الخالة متأثّرة.

سلمى: جيد، جديد جدًّا، هل يمكن أن أرى مكتبَها لأعرف أي أنواع الكتب التي كانت تقرأها؟

– تفضّلي بالطبع.

ورافقت الخالة إلى غرفة جنان، تفرّست كتبها بعناية، انتابها إحساسٌ غريب وهي في غرفتها، تخيّلتها وهي على مكتبها تغازل أوراق الكتب

بأناملها، رأت عينيها بين أركان الغرفة تتألّم في صمتٍ وكأنها تستنجدُ بها، اختلج كيانَها مشاعرُ مختلطة، وكأنّ جدران الغرفة تنادي باسمها، تشتاق لصاحبتها، أحسّت باختناق وحزن يجتاح ضلوعها.

أخذت بعض الكتب وخرجت بعد أن ودّعت السيّدتين الطيّبتين ووعدتهما بلقاء آخر، ومضت في طريقها إلى المستشفى، وحثّت الخطى نحو مكتب الدكتور عمر.

عمر: كنت أنتظرك.. لمَ تأخرتِ؟

سلمى: كانت زيارة قصيرة، لكن كفيلة بأن تحرّك داخلي مشاعر شتى.

عمر: أخبريني ما الجديد؟

سلمى: إنّها على حالها لا تستجيب لأحد، وكأنّها انقطعت عن العالم الخارجي.

عمر: أعلم هذا، أقصد لماذا ذهبت لمنزلها؟

سلمى: جنان الآن تعيش في حالة انعزال تام، وكأنّها فقدت حواسها، لكنها مازالت في عقلها؛ كلّ الفحوصات تؤكّد سلامة عقلها. إنّ ما عاشته كان أكبرَ من عمرها، تلك الصدمات المتوالية زرعت بداخلها خوفًا وكرهًا للحياة. لقد حاولت الانتحار أكثرَ من مرّة.. إنّ الإنسان إذا اشتدّ به الألم قد يفكّر في التخلّي عن حياته في لحظة يأس، ثمّ إذا تمّ إنقاذه يندم على فعلته؛ لأنه

كان في تلك اللحظة شبه غائب عن الوعي.. فالألم يخدّر الإنسان حتى النخاع. وفي المستشفى، هناك حالات كثيرة أخرى حاولت الانتحار، فالإنسان مثلما تكون بداخله طاقةٌ إيجابية قد تحتلّه أحيانًا طاقة سلبية يجب أن يفرغها، وإلّا قد تتحوّل مع الوقت إلى قوقعةٍ يدفن فيها نفسَه وينعزل عن العالم أو تغيّر شخصيّته كأنْ يصبح أكثر عنفًا أو يمكن أن يصاب حتّى بالجنون. في الدول المتقدمة في مراكز إعادة التأهيل، يوفّرون للمرضى الإمكانيات اللازمة لإخراج الطاقة التي فيهم، وذلك بممارسة هواياتهم المفضلة كالرسم أو الفن أو الرياضة، وغيرها.

وحالة جنان جعلتْها تضع غشاوةً بينها وبين العالم، وتعيش في قوقعتها هروبًا من ألمها؛ لأنها لم تجد أين تفرغه، لهذا ذهبتُ لخالتها أردت أن أعرف هوايتها؛ فعلمت أنها شغوفة بالقراءة والكتابة.. لا يمكن أن نعيدَ لها ما فقدته كي تعود من عزلتها، وبما أنّ عقلها سليم فعقلها الباطن يبحث عن أيّة طريقة ليدفع الألم حتى رغمًا عنها، فاللاوعي الموجود في الإنسان له أسرارٌ عميقة.. لذا ولو كانت ترفض أي شكل من أشكال التواصل؛ فعقلها سيستجيب إذا وفّرنا لها المجال لتمارس هوايتها التي اعتادت عليها كلّما ضاقت بها الدنيا.. وقد نجحت هذه الطريقة في دولٍ كثيرة، بل إنّ شدّة الطاقة السلبية التي تمكّنت من الإنسان خرجت من الكثيرين إبداعًا بلا حدود، وهذا ما قد يفسر النجاح المبهر بعد الفشل عند الكثيرين.

عمر: فهمتُك يا سلمى، ممتاز.

سلمى: أرجو أن يأتي الأمر بنتيجة...

ثمّ أكملت وهي تنظر في عينيه بامتنان: لن أنسى فضلَك ووقوفك إلى جانبي أبدًا يا عمر.

ثمّ ذهبت مسرعة قبل أن يجيب.. كانت تعتبره الأخَ والسند والرفيق، لا تنسى فضله عليها منذ أن جاءت يومًا لمشفاه يمامةً مجروحة قُطعَ جناحاها فظلّت تتعثّر في الوحل، هي تعرفه منذ زمن.. يوم كانا مجرّد زميلين في الجامعة، ثمّ مضى كلّ لحاله بعد التخرج.

قذفها القدر في طريقه بعد أن نشبَ فيها أظافره ونهش قلبَها، فمدّ لها يده لينتشلها من العتمة ويأخذ بيدِها إلى النور من جديد.

عادت في الصباح الموالي تحمل بعضَ الكتب بين يديها..

نظر عمر إلى الكتب التي تحملها سلمى بين ذراعيها لمريضتها، تُمسك بها كأنها طوق النجاة أو طفل صغير تحتضنه في رأفة.

عمر: هل يمكن أن ألقي نظرة؟

سلمى: بالتأكيد.

تفحّص الكتب بإمعان، ثمّ قال لها:

- سلمى، أراكِ أحضرتِ لها الكثير من الروايات.

سلمى: أجل، علمت أنها تحبّ الروايات كثيرًا، انتقيت لها الأفضل.

عمر: ولكنّ الروايات يا سلمى قد لا تكون الحلّ في حالة جنان.

سلمى: ولِمَ لا؟!

عمر: ببساطة؛ لأنها كانت تهرب من واقعها بواسطتها كلّما اشتد البلاء تصنع لنفسها عالمًا آخر ترتحل إليه بأن تغوص في أحد الروايات كوسيلة للهروب.. القصص والروايات من نتاج مُخيّلة الكاتب وعبقريته.. يأخذ القارئ إلى دنيا أخرى يعيش أحداثَها وشخصياتها، وتعزز القدرة على التخيل، وتنمّي ملكة الحسّ.. لكنّ جنان بطبعها هي الآن في عزلة، في هروب عن الواقع، يجب أن تركّزي على كتب تعيدها إليه.. تبثّ في نفسها القوة والأمل.. بعض الحلول أحيانًا قد تكون سلاحًا ذا حدّين إنْ أسأنا استخدامها يا سلمى..

- لم أنتبه لهذا.. معك حقّ.. إذًا بماذا تنصحني؟

عمر: كتب التنمية البشرية ستكون حلًّا جيدًا، لكن عليك أن تجيدي الاختيار.. فبعضهم كمَن يحاول السيرَ على الماء، لكن هناك كتبٌ كان لها دور في تغيير الكثير من الناس.. سأمدّك ببعض العناوين، وأيضا كتب السير الذاتية، هي روايات.. معظمُ أبطالها خاضوا أشواطًا مريرة في حياتهم

وكسروا العديد من الحواجز..ستكون سيرهم دافعًا لها وحافزًا للمقاومة، ذلك بأن تعلم أنّ الخلاص من الألم يكون بالتحدّي، وأنّ على هذه البقعة من الأرض كثيرون تجرّعوا مرارة الحياة مثلها.. وبعضُ كتب الفكر كذلك ستفي بالغرض إن شاء الله.

سلمى: في ذاكرتي الكثيرُ من العناوين الجيدة.. خصوصًا السّير الذاتية، شكرًا جزيلًا يا عمر.

عمر: هذا واجبي يا سلمى، واجبنا جميعًا.

ودّعته على عجل بعدما شكرته، وأخذت منه بعضَ العناوين، ودلّها على مكتبةٍ تجد فيها ضالتها.

كانت تسير بين أروقة الكتب تتصفّحها بعناية على أحرّ من الجمر حتى تعود بها إلى جنان، واعتراها حنينٌ إلى أيام خَلت.. لمّا وقعت عيناها على روايات سلسلة سحر، لاحت في ذهنها صورةٌ قديمة لامرأة شابّة تحتضن فتاةً صغيرة تمسّد على رأسها بحنان، وتقرأ لها منها حتى تغفو بين ذراعيها كملاك.. استسلمت لتلك الذكرى تداعب روحَها في لذّة، حتى استفاقت على صوتِ البائع يطلب منها الثمن، دفعته ومضت..

فتحت الباب، وتقدّمت بخطى بطيئة نحو جنان التي كانت جالسة على سريرها، على حالها منذ جاءت؛ وجهٌ خالٍ من أثر الحياة، وعينان تغوصان في

اللا شيء. وضعت الكتب التي تحملها على الطاولة المجاورة للسرير، نظرت إليها لدقائق دونَ أن تنبس ببنت شفة، ثمّ أردفت:

«مرحبًا جنان، أنا سلمى الدكتورة المشرفة على حالتك، هل يمكن أن نصبح أصدقاء؟

انظري علمت أنّك تحبّين الكتب.. أحضرت لك العناوين التي تحبّين..».

لم تلقَ منها أيّ تجاوب وكأنّها غير موجودة.. أكملت:

«صغيرتي، أهلك مشتاقون لك كثيرًا، ينتظرون شفاءك وعودتك لهم، أصدقاؤك في الجامعة كذلك، أعلم أنّ ما حصل لك مؤلم، لكن لستِ الوحيدة في العالم، يجب أن تتخطّي الأمر، هناك أشياء كثيرة تستحقّ أن تعيشي من أجلها، مازال في الدنيا ما يستحقّ أن نعيش له؛ أقاربك.. أصدقاؤك.. دراستك.. أحلامك.. مستقبلك، مازلت في ريعان شبابك، وراء هذه الجدران ينتظرك الكثير، حطّمي اليأس ولا تستسلمي، تمتلكين وجهًا جميلًا ستليق به الابتسامة كثيرًا».

عادت إلى المكتب، وارتمت منهكة على أحد الكراسي، احتضنت نفسَها بذراعيها، وقالت بقلق بالغ:

«كان جدار الصمت الذي اختفت به ثقيلًا، حاولت أن أكسره دونَ جدوى».

عمر: لا تتحدثي إليها الآن، لو كانت ستستجيب لأجابتْ من قبل، اتركي لها الكتب.. حاولي أن تضعيهم في مكانٍ باد لها...

سلمى: لقد فعلت. ولكم أرجو أن ينجح الأمر، كم أتمنّى أن أرى الحياة تدبّ في ذلك الجسد.

مرّ أسبوع كامل، وسلمى تتردّد على غرفة جنان بلا جدوى.. كانت الكتب التي وضعتها لها كما هي.. لم يتغيّر مكانُها ولا ترتيبها..

كادت تيأس، لولا أنّ قوة الحبّ والأمل بداخلها يوقدان فيها شعلةَ الصبر والصمود، تنظر إلى السماء بحيرة، تأخذ نفسًا عميقًا، تحتاج إلى جرعة أكبر؛ فتأخذ نفسًا أعمق، تتمنى لو أنها تأخذ كلّ أكسجين العالم تدخّره في رئتيها تغسل به كلّ تلك الترسّبات التي خلّفتها تلك الأوقات التي تختنق فيها كلّما تعثرت..

تقف أمام مرآتها تنظر إلى انعكاس صورتها، لم تتمعّن في وجهها منذ أمد، كانت تكتفي بلحظات تكاد تعدل فيها مظهرها..

رأت أمامها امرأةً أربعينية، طالما قيل لها إنّها تظهر أصغرَ من عمرها، لكنها في داخلها أكبر بضعْفين، أكبر وجعًا، أكبر تجربة، وأكبر بكثير أملًا ورغبة في المقاومة.

تمسك مشطها لتسرح شعرها.. شعر قصير ناعم لا يكاد يلامسُ كتفيها، تعبث به الرياح كيفما شاءت.. وضعت قبعةً سوداء على رأسها، ثمّ ارتدت معطفًا أسودَ طويلًا، ومضت إلى وجهتها المعتادة..

كانت دائمًا تمرّ على مكتب الدكتور عمر قبل أن تبدأ في عملها، محطتها اليومية، يشربان القهوة معًا.. ويتحدّثان في أمور العمل وأحوال المرضى، كان صديقها الوحيد، والكتفَ الذي تستند إليه دائمًا.

جلست تمسك بكلتا يديها كوبَ قهوة ساخن، تضغط عليه بقوة، تلتمس الدفء منه فتسري حرارتها بين كفّيها، وتسري في جسدها قشعريرة، وهي تستمع إلى صوت الرياح في الخارج يداعب أغصانَ الشجر التي بدأت تتعرّى شيئًا فشيئًا..

عمر: إذًا، ما الجديد؟

– لا أعلم.. رأسي يكاد ينفجر، أشعر أنّي أسير في طريق موحش بابُه مغلق، ما إن وصلت إليه حتى اكتشفت أنّني لا أملك مفتاحه، لقد أحببتها يا عمر، رأيت فيها جزءًا منّي دُفن تحت التراب منذ عشر سنوات، طالما اهتممْت بمرضاي، أشعر بوجعهم وأجتهدُ حتى يتعافوا، لكن كان بدافع الواجب وحبّ الخير؛ أمّا جنان، فهي حكاية أخرى، رأيت فيها "نور" ابنتي التي دفنتها بيدي.

توقّفت وابتلعت ريقها.. لم تلفظ اسم ابنتها منذ مدّة، ولأوّل مرة تلفظه دون أن تبكي..

أكمَلَت: شيء ما شدّني إليها، أقسمت بأنْ لا أسمح لذلك المشهد الذي كفّنته في جزء مُعتم من ذاكرتي بأنْ يعاد، تلك الزهرة.. لن أسمح لها بالذبول كما ذبلت زهرتي يومًا..

عمر: عزيزتي، أفهم شعورك جيدًا، وأوافقك على كلّ ما تقولين، وأشدّ على يديك، وأنا بجانبك كما كنت وسأظلّ دومًا، لكن هذه الحالة معقدة.. معقدة جدًّا، لقد جرّبنا كلّ الحلول.

قاطعته: لا تُحْبطني يا عمر، أرجوك.

ثمّ واصلت: شيء ما بداخلي لا أفهمه.. شعور غريب جدًّا لا عهدَ لي به يأسرني كلّما قرّرت الخضوع للواقع، أشعر بشظايا بلّور مكسور تنغرس في لحمي، أصوات تتعالى في رأسي، صور تتكرّر أمام عيني قد أحرقتها في مُخيّلتي منذ عشر سنوات.

لم أصلّ لله مثلما فعلت هذه الفترة، شعور غريب يقول لي إنّ حياتي سوف تتغيّر، وهذه الفتاة ستكون سببًا، أتعلم.. لا أؤمن بالرؤى وعلامات القدر.. لكنّ البارحة رأيت حلمًا غريبًا؛ رأيت ابنتي.. كانت جميلة يا عمر، جميلة جدًّا، وملامحها واضحة إلى حدّ كبير، كانت تبتسم لي وهي تبتعدُ.. صرخت.. «خذيني معك» فأجابتني.. لا أزال أذكر صوتها، صدّقني.. قالت «مازال

الوقت مبكرًا لنلتقي.. مازال أمامك الكثير لتفعلينَه»، آه يا عمر.. آه،، عادت مشاعر الحنين تعصف بي.

نظرت إلى عمر، وقد بدت عليه علاماتُ التأثر، ثمّ ابتسم ابتسامة تنمُّ عن رضا كبير:

- إذًا يا صديقتي، أكملي ما بدأته ولا تيأسي ما دمت مصمّمة.

سلمى: سأفعل يا عمر، سأفعل، أتعلم؟ فكّرت في حلّ آخر، سأقرأ لها بنفسي كما كانت تفعل والدتُها، سيكون هذا تابعًا لحصص العلاج، سأقرأ لها كلّ يوم كتابًا.

عمر: مَن يطيق ما تطيقين يا سلمى!!..

مازال في هذه الدنيا أرواحٌ نقيّة، أفواهٌ تصدع بالحقّ ولو ألجمت بلجام من نار، قلوبٌ عرفت معنى الحياة؛ فنزعت عنها اللّحاف وقامت.. هناك شيء في هذا العالم يخصّك ينتظرك.. في داخل كلّ منا صوت يناديه أتسمعه.. ألقِ السمع وأصغِ، ابحث عنه جيدًا سيقودك يومًا ما إلى القمة، إن اتّبعته فكنْ على يقين أنك ستبحر في الوحل كثيرًا.. ستتسلّق أعمدةً من نار.. ستسجن بين جدران صدئة.. سيزورك النوم ولن تستقبله أجفانُك.. سيتغير طعمُ الماء.. لن يبق بردًا وسلامًا؛ سيصير بطعم الحنظل.

ستتحمّل؟ أبشر بالنصر إذًا...

تمشي كلّ يوم بخطوات يلحنها الثبات.. تجلس قبالتها وتقرأ لها ما تيسّر، تحاول أن تضفي المتعةَ على كلّ كتاب، تغيّر صوتَها مع كلّ مقطع، مرّة يعلو وأخرى ينخفض، ببطء مرّة كأنّما يتغزّل بالكلمات أو يتذوّق طعم الحروف، ويسرع أحيانًا يلتهم المعاني.. حتى نبضات قلبها تسايره في عناد، تحاول قراءة ملامحها مع كلّ سطر تقرأه، وأحيانًا تخاطبها تشرح لها.. تحاول أن لا تتذكر أنها تقرأ لجسدٍ لا يتجاوب.. بل تحاول سماعَ دقّات ذلك الجسد، تحاول سبر أغواره وإيقاظ الروح النائمة داخله.

بقيت على هذه الحال شهريْن كاملين.. تبحرُ وسط بحرٍ هائج على متن كتاب، تحاول إنقاذ غريق بكلّ نفس لديها..

ألقت بكامل جسدها المُنهك على المقعد، دفنت وجهها وأغرقت في البكاء، كلّ خلية في جسدها كانت تبكي، دقّات قلبها تكاد تتوقّف، والضباب يرخي سدولَه أمام عينيها.

رفعت رأسها على صوت عمر يواسيها، وإن كان يوجد في ذلك المكان والساعة مَن أيأسُ منها؛ لكان هو.

«أكاد أجنّ يا عمر، أوّل مرة أتذوّق طعم الفشل، لم ينفع معها شيء، أراها تذبل كلّ يوم أكثر، هل ينفع معها أن أنتزعَ روحي مِن هذا الجسد المُحبط وأعطيها لها، لو كان بإمكاني لفعلت صدقني»..

استجدى الكلمات لتخرج من حلقِه فلم يقدر، كلّ كلمات المساندة والتشجيع والحثّ على المواصلة والتمسّك بالأمل لم تكن تجدي.. اكتفى ببعض كلمات يعزّز فيها ثقتها بنفسها، ولمّا اطمأنّ إلى أنها هدأت؛ طلب من سائقه إيصالَها إلى منزلها، وجلس إلى مكتبه وغرق في خناق مع عقله؛ علّه يسعفه بحلّ، حتى طغت على عقله فكرةٌ تفرض نفسها بكلّ عناد..

أخذ هاتفه، واتّصل بأستاذٍ قديم له..

– مرحبًا دكتور.

– أهلًا بك عمر، كيف حالك صديقي؟

– الحمدُ لله، أردت أن أستفسر حضرتك عن موضوع.

– خيرًا يا عمر، تفضّل.

– دكتور، لنا مريضة منذ مدّة هنا لا تستجيب أبدًا، تعيش في حالة عزلة بلا أي تعابير، أو حتى كلمة، جرّبنا معها كلّ الطرق بلا فائدة، تعرّضت لصدمات جعلت حالتها إلى ما آلت إليه الآن..

– إذًا هي مصابة بحالة كآبة شديدة لم تتحسّن بالعلاج الدوائي والعلاج النفسي؟

– نعم دكتور، حتى أنها صارت جامدة كالجثة.

– هذه الحالة تسمّى بالتشمّع؛ حيث يفقد المريض، لأسباب نفسية، القدرة على الحركة، ويتشمّع في مكانه لساعات طويلة دونَ أيّة حركة أو استجابة لأيّ تحفيز خارجي، ويحدثُ هذا في بعض أنواع انفصام الشخصية والكآبة الشديدة.

– نعم، بالضبط.. ولكن ما الحلّ يا دكتور؟

– مِن أفضل الحلول التي تنجح في هذه الحالة هي العلاجُ بالصعقات الكهربائية.. وتعتبر من أكثر طرق العلاج فاعليةً وأكثرها أمانًا في علاج حالات الاكتئاب، لقد لاقت هذه الطريقة نجاحًا كبيرًا في هذه الحالة..

– لقد فكّرت في هذا العلاج لّما سمعت عنه، لكنّنا لم يسبق لنا أن مارسناه في المشفى هنا، هذه أوّل حالة نتعرّض لها، أردت أن أستشيرك أولًا يا دكتور؛ لأنّنا نثق في علمك، ثمّ.. إنّني متردّد..

– اطمئنّ يا عمر، سأرسل لك كلّ البيانات على الإيميل، وسأتابع الحالة معك.

وشردَ ينظر إلى سقف المكتب، علّق بصره في الأفق، ويدعو في نفسه أنْ يكون هذا الحلّ هو سقف الكفاية لهذا العذاب.

مرّ أسبوع، وجنان تمارس العلاج بالكهرباء.. جسدٌ نحيف برزت عظامُه ملقًى على سرير أبيض تحيط به الأسلاك من كلّ مكان، صراع بين الرغبة في الموت والرغبة في الحياة خلّفته ملامح غطّاها غبار الزمن..

لم يخبر عمر سلمى بأمْر العلاج.. أراد إعفاءها من المسئولية ورؤية ذلك الجسد يتعذّب ماديًّا إضافة إلى عذابه المعنوي، أو لأنّه خشي أن يقتل داخلها ما تبقّى من أمل إذا لم يأتِ هذا العلاج بنتيجة.. ومن حسن حظّه أنّ سلمى أخذت أجازة في هذه الفترة بعد محاولة وإصرار منه لإبعادها متعلّلاً بأنها متعبة وتحتاج للراحة لتبدأ من جديد بعد أن وعدَها بأن يتولّى زمام الأمور ويشرفَ على علاجها ويخبرَها بكل جديد.

ذات غفوة، سُرقت سلمى من الحياة، زارها ذلك الطيف المحبّب إلى قلبها، رأت ابنتَها مرة أخرى لكنها كانت بهيئةٍ مغايرة، كانت تلبس فستانًا أسود، وعلى وجهها مسحةٌ من حزن.. اقتربت منها، مدّت لها يدها المرتعشة، فابتعدت، وقالت لها بنبراتِ عتاب "الأمانة يا أمي.. الأمانة".

استيقظت فجأة، وكلّ فرائصها ترتعد.. أحسّت بسهام الذنب تنغرس في قلبها، الواحد تلو الآخر، كان يجب أن تكون بجانب جنان، لكنها استسلمت لليأس.. ما كان يجب أن تبتعدَ مهما كلّفها الأمر؛ أسرعت لترتدي ملابسها، ثمّ اتّجهت إلى المستشفى، ودونَ أن تمرّ على عمر- كعادتها- أسرعت إلى غرفة المريضة، فهالها ما رأت:

وقفت أمام الباب قلبُها يضطرب، ساقاها ما عادتا قادرتيْن على حملها، أطلقت صرخةً سمعها كلّ مَن بالمستشفى، وسقطت على الأرض وسط أنهار دموعها..

رأتْ ذلك الجسد وسط الأسلاك تلفّه من كلّ جانب، وهي تهتزّ كأنها في حالة صرعٍ متأثرة بتلك الضربات، أحسّت بها تتألم، تصرخ وسط عتمتها..

أسرع إليها كلّ مَن كان في الغرفة مِن أطبّاء وممرضين، ومنهم عمر، ووضعوها فوق أحد الكراسي لكنّها سرعان ما وقفت وجلست بجانب السرير الذي مدّت فوقه جنان، وفي حالة هستيريا شرعت تنزع كلّ تلك الأسلاك من فوقِ جسدها، وهي تصرخ وتنتحب..

خرج كلّ مَن كانوا في الغرفة بطلبٍ من عمر، وعلامات الدهشة والحيرة تحتلّ وجوههم..

– سلمى، أرجوك اسمعيني، سأشرح لك.

رمقته بنظرات حادّة لم يعهدْها فيها.. مزيج من العتاب.. الغضب.. الألم..

– أخرج.

صاحت بملء حنجرتها..

لم يشأ أن يتركها هكذا بلا تفاسير، لكنه لم يقدرْ أن يواجه غضبَها؛ فتركها وخرج ريثما تهدأ...

بعد ساعة مرّت على عمر كأنّها دهر، دخلت سلمى إلى مكتبه بوجهٍ صارم، قرأ في ملامحه براكين من الغضب..

– أريد تفسيرًا لما رأيته قبل قليل.. حالًا.

– اجلسي أرجوك يا سلمى، ألا تثقين بي؟!

– لقد علمت أنكم تمارسون معها هذا الأمر منذ أسبوع.. لِمَ لمْ تخبرني؟

– لقد أردتك أن تحظي ببعض الراحة، أرجوك اجلسي واسمعيني...

استأنف متفاديًا النظرَ إلى وجهها:

– تعلمين أننا هنا في وطننا مازلنا متأخّرين في علاج مثل هذه الحالات التي تعدّ نادرة.. لذا لم تصلنا كلّ الدراسات.. لقد اتّصلت بأحد أساتذتي، أثق في علمه، وله مكانة في هذا الاختصاص، شرح لي الكثير عن هذا العلاج، يستعملونه في الدّول المتقدمة في علاج حالات الاكتئاب المتقدمة مثل حالة جنان.. هو مِن أنجع العلاجات في هذه الحالة.

– لكن.. أليس لهذا العلاج من آثار جانبية؟

– لا يا سلمى اطمئني، اتّخذنا كلّ الاحتياطات اللازمة.

تنفّس الصعداء، وشعرت ببعض الراحة..

– لكنّني ما زلت غاضبة منك يا عمر، كان يجب أن تخبرني.. ثمّ أنا مازلت لا أستوعب.. لست مطمئنة تمامًا.. لا أدري الحقيقة، هذا يفطر قلبي.

– سلمى، سنقوم بكلّ الحلول مادامت لا تشكّل خطرًا، لكي تشفى يجب ألّا نتراجع، أليس هذا ما تريدينه؟

هزّت رأسها بالإيجاب ولم تتكلم، ثمّ أشاحت بوجهها إلى النافذة تنظر إلى الآفاق، وقد وضعت يدها على صدرها.

كانت سلمى تتظاهر بالصمود كلّما رأت «جنان» تتعرّض لذلك العلاج، لكنها سرعان ما تترك المكان وتذهب لتبكي بصمتٍ شفقةً بها.

مرّت الأيام وهي على نفس الحالة لا يتحرّك جسدها سوى في حصص العلاج..

وضعت رأسَها بين يديها وهي جالسة أمام عمر، حاولت أن تتمالك أعصابها، ثمّ صرخت:

- إلى متى سيستمر العلاج؟ لا أرى أيّة نتيجة، من الأفضل أن نتوقف.

- يا سلمى، لا يوجد حلّ أفضل، يجب أن نستمرّ.

- حسنًا، يجب أن أذهب الآن، سنتحدّث في الأمر لاحقًا.

أحسّت بالذنب لأنها رفعت صوتها؛ فاعتذرت وهمّت بالذهاب، فاستوقفها سائلًا:

- طيّب سلمى، هل دوّنت الملاحظات الخاصّة بالمريض الجديد؟

- طبعًا، عذرًا لقد نسيت الدفتر الذي دوّنت فيه مع قلمك في غرفة جنان، سأحضره.

– لا داعي سأحضره بنفسي.. بإمكانك الذهاب.

عادت إلى بيتها متثاقلة الخطى وارتمت بملابسها على سريرها الذي ضمّ كلّ أوجاعها، راودتها رغبةٌ في البكاء، طردتها سريعًا واستسلمت للنوم، أخذ منها التعب كلّ مأخذٍ، لم تستيقظ إلّا في الصباح على صوت المنبّه..

– يا الله! لقد نمت كثيرًا.

انتفضت مسرعةً إلى عملها، وكالعادة مرّت على مكتب عمر..

– مرحبًا.

– مرحبًا سلمى، تفضّلي.

طلب لهما قهوة، وجلسا يتحدّثان عن أحوال المرضى، وتجنّبا الخوض في حالة جنان.. تركا الأمر للوقت، وكأنّ الحديث عنها صار مؤلمًا لهما الاثنيْن..

ثمّ حاول رتقَ الفتْق الذي كان بينهما منذ أن علمت بالعلاج الذي أخفاه عنها فجأة.. حاول الخروج بالحديث عن العمل، تذكّر أمرًا فسألها مداعبًا:

– لم أكن أعلم أنّك تحبّين كتابة خواطرك في دفاتر المرضى يا دكتورة.

ضحكت وأجابت:

– لا أعلم عمّ تتحدّث يا دكتور!

- الدفتر الذي تدوّنين فيه الملاحظات وتركتِه بغرفة جنان يا سلمى، انظري ما كتبتِه في الصفحات الباقية.. هل نسيت، أم تحاولين الهروب؟.

لم تستوعب ما يقول، فأخذت منه الدفتر تقلّب صفحاته، فوقفت مذهولةً تقرأ ما كُتب فيه:

«إنّي حزينة، أغوص في الحزن حدّ الاختناق.. حزينة حدّ السأم من ممارسة الحياة، حدّ تمنّي الموت الذي رفضني هو الآخر كما رفضتني الحياة...

انفلت عمري من بين أصابعي، وبقيت حطامًا على قارعة الأيام..

أشعر بأنّي لا أحد.. لا شيء.. مجرّد نقطة سوداء صغيرة، أكثر سوادًا من كلّ شيء.. أتنفّس وجعًا بعمق كلّ شيء.. كم أشفقُ على نفسي إلى درجة نُكران الذات..

أكاد أجزم أنْ لا أحد في هذا العالم تعذّب مثلي، صرتُ والعذاب روحًا واحدة، انصهرنا معًا فصرنا شيئًا واحدًا.. مؤلمة دقاتُ قلبي حتى الأكسجين الذي أسرقه من الحياة أستشعره وجعًا يسري بين شراييني...

العذاب.. توأمي الذي لا يراه سواي، نزل معي إلى الحياة، لعنة لا تفارقني ولا تتركني أرحل..

كم أتمنّى فقط أن تنظروا في عيني..

أن تصمتوا وتروْا عشق الموت فيهما..

لتتركوني فقط أرحل بسلام.. لم أكنْ لأكتب لكنْ ما أصعب الوحدة وما أقسى الانتظار!!

لماذا كلّ ما تمنيت شيئًا في هذه الحياة حُرمت منه!؟ هل أتوقف عن تمنّي الموت وأتمنى الحياة ليزورني..؟!!

هل أثكل أحلامي وأقعُ في غرام اليأس كي يتحقّق حلم واحد؟

هل أتزوّج الألم وأنجبُ منه قبيلة من الأحزان كي يطلقني؟

هل مِن مشترٍ لقلبي؟ قلب مثقل بآه.. ويا ليت...

هل من مُمسك ليدي؟ يدٌ صفعها الصقيع حتى ارتوت..

أتوجّع.. وقلبي يكاد يخرّ وجعًا، آلامي تدكّ صدري دكًّا.. وأغوص في سراب لا نهاية له.. أفتّش عن خيوط الماضي علّني أمسك بحبلِ نجاة يأخذني من حاضرٍ لا أريده، لا أبالي أنِ اختنقت وسطَ سرابي.. فموتي هناك أرحم.. أرحم من نحْري في صحراء واقعي..

كلّ شيء حولي صار قاتمًا يرتدي لونَ الحزن المدفون داخلي..

أشتاقُ لأيام كنتُ فيها سعيدة.. لأيام كان للحلم فيها معنى رغم الصعاب، لبراءتي التي سرقوها، لنقائي الذي نشبت فيه الحياة مخالبَها دون رحمة..

هل أستحقّ أن أداس بلا مبالاة؟

لأن تقابل مشاعري بالجفاء؟

لماذا؟ لماذا فجّرتم براكين الحزن داخلي؟

لَم دفعتموني وسط متاهاتِ الضياع؟

أشتاق لطهارتي التي دنّستموها.. إلى أن أحلّق من جديد وسط أحلامي.. إلى أن أبكي وجعًا، خوفًا وثقلًا بالذنب..

ذنب لم أقترفه يومًا، وها أنا أتجرّع مرارته.. أحتقر في جسدي قدرته اللا إنسانية على الحياة رغم الموت التي احتلّ قلبه..

حتى هو خذلني.. ولم يشأ أن يندثر، أو أن يترك روحي تصعد..

كلّما أردت أن أغفو أرى أشباحًا تحوم حولي تلتهمُ جسدي، تنبش فيه مخالبَها بلذّة.. أصرخ.. فلا أسمع غير صدًى يصمّ أذني.. أهذا ما أردت أن أكتبَه حينما أمسكت القلم؟

ولماذا أكتب؟ وها أنا رغمًا عني أكتب، بل أخاف ألّا أكتب فتنطفئ الشمعة الوحيدة التي مازلت أستنير بها..

أو ربّما لأنّ لون البياض في الورق أغراني.. وأنا التي كدتُ أنسى هذا اللون من ذاكرتي..

أو أنني أحسدُ عذرية الورقة فأردت أن ألطّخها بالحبر الممزوج بأوجاعي.. أنا التي سُرقت منّي عذريتي أمام عيني؟

أمدّ يدي فتصفعني الوحدة.. باردة كبرودةِ الجدران التي سُجنت داخلها.. هل من أحدٍ يفتح لي أبوابه؟ هل من أحدٍ يتواضع ليفتح حضنَه للّا أحد؟

ما هي أصغر وأضأل حالةٍ يمكن أن يمرّ بها إنسان في حياته؟ نطفة؟

أنا أشعر الآن أنني مجرّد نطفة.. بل أبعد بكثير، نطفة قد لفظها رحِمُها فباتت في الظلام..

أعيدوني إلى جوف أمي.. ما أجمل لون الظلام هناك.. آه يا أمي.. كم أشتاقك!! لحظة واحدة في حضنك كلّ ما أتمنّى من هذه الحياة البائسة.. هذا العالم يا أمي مُخيف.. الجميع تخلّوا عنّي.. صفعتني الحياة بعد أن يتّمتني.. هل بجانبك مكانٌ في قبرك يحويني؟

صرت أتمنّى أن أدفنَ حيّة.. أن أدفن بجانبك.. أن أتشبّث بك وأبكي..

لم أجدْ بعدَك حضنًا يأويني.. خذيني إليك.. أعلم أنك لن تتركيني مثلهم.. أنت الوحيدة التي قدْ لا تفعل.. أحتاجك.. كما لم أحتاجك قبل..

صغيرتك تحتضرُ بصمت، ليتك تأتين.. خذيني إليك يا أمّي.. خذيني..

فما عدت أحتمل، سأنفجر عِرقًا عرقًا، بداخلي بركان من البكاء يحرقني، ولا يريد أن ينفجر، فأبكي كلّ ما في داخلي..

وماذا يفيد البكاء؟ هل سيعيدُ أحلامي، كتبي، أقلامي وأشيائي الصغيرة، ملامحي التي أرهقَها الزمن؟ هل ستقرؤني مرآتي من جديد؟

بل هل سيعيد لي حضنك؟

أريد أنْ أبكي يا أمّي.. فقط أن أبكي..

ولن أبالي بأي شيء بعدها..

هل يوجد أقسى مِن أن يتمنّى المرء الموت؟!!

بل حتى الموت أمنيةٌ صعبة.. فقط أن أبكي أقصى ما أتمنّى.....»

كان قلبها يعتصره مزيجٌ من الألم والفرح، وقشعريرة تسري من قلبها حتى أخمص قدميها، ارتجفت أطرافُها، استجدت صوتها فخرج مرتعشًا متقطعًا:

– لست أنا مَن كتبها يا عمر، أظنّ جنان.. جنان مَن كتبت هذا...

ودونَ أن تنتظر جوابًا، انطلقت ساقاها إلى تلك الغرفة لتجدَها متكوّرة على نفسها في ركنٍ قد أحاطت جسدها الصغير بكلتا يديها، كأنّها تعانق نفسها وحشرت رأسها بين ركبتيها..

جلست سلمى على الأرض أمامها، وضعت يديها على كتفيها..

«صغيرتي، مهما بلغ حجم الألم بداخلك، فأنت تتنفّسين وتكتبين، وهذا يعني أنك على قيدِ الحياة، والإحساسُ داخلك لم يمت، لا تضلّي الطريق الذي سيعيدك للنور، لا تستسلمي، فالأسوأ من كلّ ما قد مرّ بك هو أن تستسلمي له، بداخلك قبسٌ من نور.. ابحثي وستجدينه، الحزن لم يقتلْ إنسانيتك، هي التي ستنتشلك من البحر الذي تغرقين فيه، لا شيء أقوى من إرادة الإنسان، لعلّ ما تخشينه مجرّد وهم، ولعلّ ما تحمله لك الأيام في طيّاتها أضعاف ما مرّ بك سعادة.. إنْ لم يكن من أجلك فمِن أجل والدتك..

هي الآن تراك، لا تدعيها تتألّم لأجلك، ما فائدة الموت إنْ كان بعدَه عذابًا أبديًّا.. كلّ هذا الألم فان.. مازال أمامك الكثير، لديك الوقت للحلم.. للنجاح.. للحبّ.. نحنُ لم نخلق لنشقى.. بل لنقاوم، ما لذّة الحياة إنْ مرّت بسلام.. بلا متاعب.. بلا جروح، تخرج من أعماقها إنسانيّتنا.

لست الوحيدة في هذه الدنيا التي يُتّمت، ولست الوحيدة التي اغتُصبت.. شرفك ليس دمًا أحمرَ فوق سرير أبيض؛ الشرف بداخلك أنتِ في روحك وأخلاقك..

أنا قد اغتُصِبَت ابنتي ذاتُ العشر سنوات منذ عشرة أعوام، وانتحرت إثر ذلك وأنا في غيبوبة.. في المستشفى من هوْل المصيبة..

لو أنّني ما استسلمت للألم آنذاك، وكنت بجانبها؛ لكانت الآن في عمرك تنبض بالحياة..

ثكلت وحيدتي، ثمّ أصبتُ بكآبة شديدة مثلك وكنت مكانك.. ذات يوم..

لكنّني قاومت ولم أستسلم رغم مصيبتي العظيمة، وخرجت للحياة من جديد، فوجدت الكثير في انتظاري، سترسمين أحلامك من جديد، ستشرق الشمس داخلك مرة أخرى، مازال هناك وقت لضحكات كثيرة وانتصاراتٍ أكثر؛ فقط قاومي.. ما ضرّك لو تحاولين!! السعادة قرارٌ صدّقيني.. جرّبي فقط جرّبي.. سأكون بجانبك لن أتركك أبدًا، من أجلك.. من أجل أمّك.. من أجل السعادة القادمة قاومي.. قاومي حتى آخر نبضٍ في عروقك».

خرجت الكلمات من قلبها الذي كان ينتظر هذه اللّحظة بفارغ الصبر. كانت جنان لا تزال في وضعيّتها كعادتها كأنها لا تسمع، أحسّ عمر باضطراب سلمى وهو يرقُبها من بعيد؛ فطلب منها الانصراف حتى ترتاح قليلًا، وتمرّ جنان للعلاج. وافقت على مضض، وقامت متكاسلة الخطى نحو الخارج وقلبُها وراءها، وكأنّها تحلم.. سمعت صوتًا رقيقًا ثملًا من الألم يناديها «دكتورة سلمى»، لم تعِ ما سمعته، لم تصدّق.. شقّ ذلك الصوت غشاوة روحها وحرّك كلّ عواطفها.. جمدت في مكانها، ثمّ بلا وعي التفتتْ وراءها لتجدَ ذلك الوجه البريء يرمقها باستعطاف، كغريق ينظر لمنقذه، اقتربت منها وجلست أمامها كأنها تريد أن ترى تلك الشفاه تتحرّك حتى تصدق، وعاد الصوت يخترق حواجز الصمت، ويخرس على إثره كلّ أصوات العالم «ضمّيني.. أرجوك».

ودون وعي وكأنّها لم تنتظر أن يحلّل دماغها الكلام، بل فهمته روحها قبله؛ أخذتها في حضنها ولم تستوعب حتى أحسّت بها ترتعش بين ذراعيها، والدّموع تنهمر حارّة على كتفها. أحسّت أنها هي مَن كانت تحتاج لهذا الحضن.. وبكتا، بكتا معًا وتمازجت روحاهما كما تمازجت عبراتهما.

* مرّ أسبوع كامل، وجنان تتلقى العلاج، وحالتها في تحسّن مستمر، وسلمى تغدق عليها بكلّ العطف والحنان. تقضي معها كلّ النهار، ولا يفرقهما إلّا ساعات النوم.. كأنّ كلّ واحدة منهما وجدت في الأخرى نظيرها الروحي. الجميع مندهشٌ لهذه العلاقة بكلّ ما فيها من حبّ نقي وإنسانية جمّة..

كانت سلمى ترى فيها ابنتها، والأخرى تراها أمّا أهدتها لها الحياة فجأة..

نصائحها.. كلامها.. تشجيعُها.. خوفها الشديد.. وحرصها عليها.. وكلّ ذلك الاهتمام الذي جادت به سلمى عليها.. والدفء الذي وجدته في حضنها، والذي حُرمت منه منذ زمن بعيد؛ أعادوا لها الطمأنينة والقوة لتبدأ من جديد. كانت لا تصدّق كيف دخلت هذه المرأة عالَمها وغيّرت واقعها فجأة.. كانت علاقة أبعد من علاقة طبيبٍ بمريض.. أبعد بكثير...

* صعد حسام الدّرج إلى المسجد لاهثًا، ولمّا دخل رآه في ركنٍ من أركانه تحيطه هالةٌ من الحزن والسكون متوجّهًا إلى القِبلة، متأمّلًا السقف.. وقد اتكئ إلى الجدار وفي عينيه ألف كلام ودعاء..

اطمأنّ إلى وجوده، فتنهّد بعمق واتّجه نحوه، ووضع يده على كتفه، أحسّ مجد بثقلٍ على كتفه؛ فالتفت ليرى صديقه ماثلًا أمامه لم يتكلم.. فبادره حسام «اشتقت إليك يا صديقي».

أجابه بنظرةٍ مُنكسرة، ووضع يدَه على يد حسام برفق، ولم يجب بكلمة واحدة..

– مجد، تعلم أنّ ما تفعله ليس الصواب، ما الفائدة من بقائك هنا؟ منذ شهر كامل وأنت معتكف في المسجد، والدتك تشتاق لك كثيرًا. تكفيها غربةُ أخيك وزواجه دون أن تعلم، وها أنت الآن تنطوي على نفسك هنا!! لم يبق الكثير على امتحانات آخر العام، قطعت الكثير والآن لمّا اقترب موعدُ التخرج الذي انتظرته بفارغ الصبر تترك كلّ شيء! كلّ ما حدث قضاءٌ وقدر، وأنت مؤمن يا مجد.. قريبًا، سنرتدي زيّ التخرج ونمضي في طريقنا لتحقيق أحلامنا... كلّ شيء سيكون على ما يرام، قبوعك هنا واستسلامك للحزن لن يغيّر الماضي.. كلّنا آلَمَنا ما حصل لجنان.. لكنّ الاستسلام للألم لن يغيّر شيئًا.. أعلم كم تحبّها يا مجد، لكنّ مستقبلك أهم من كلّ شيء.

– عن أيّ مستقبل تتحدّث يا حسام؟ لن تفهمني أبدًا.. ما بداخلي نحو جنان أعمقُ بكثير من كونه مجرّد حبّ؛ المستقبل.. النجاح.. الحياةُ كلّها لا تعني لي شيئًا مقابل سعادتها، أضحّي بحياتي كلّها من أجلها يا حسام، لا يهمّني في هذه الدنيا سوى أن تكون هي بخير، أظلمت الدنيا أمام عيني يا

صديقي، لأوّل مرّة أقف عاجزًا، أوّل مرّة لا أستطيع مساعدتها، لا أعلم عنها شيئًا سوى أنها مريضة ولا تستجيب للعلاج منذ مدة، ولا يُسمح لأحد بزيارتها؛ وتريد منّي أن أواصل حياتي كأن شيئًا لم يكن!! لا أستطيع.. لا أستطيع يا حسام.

ووضع يديه على وجهه كأنّه يمنع دموعه من النزول..

– هذه المرّة الأولى التي أراك فيها على هذه الحال، ليتها فقط تعلم كم تحبّها يا مجد.. كلّ الدنيا تتمنّى رجلًا مثلك وأنت لا ترى غيرها، رغم أن في قلبها رجلًا آخر لا يستحقّ..

رفع مجد رأسه، وكأنما تذكّر أمرًا هامًّا..

– سأذهب لأراه يا حسام، سأتحدّث معه وأخبره بكل شيء، هي تموت الآن وهو يستمتعُ بحياته.

– مجد، ما الفائدة يا صديقي؟ أخشى أن تتشاجرا، لا تنسَ هو أخوك الأكبر، والآن متزوج حديثًا، هل تظنّه سيترك زوجته ويأتي إلى تونس من أجلها؟ وماذا سينفعها مجيئه؟.

– نعم يا حسام، وإنها تحبّه كثيرًا، قد يكون له عذر لزواجه المفاجئ، والذي حتى أمي لم يخبرها به، قد يعود إذا علم ما بها، فهو أيضًا قد أحبّها يومًا، ولعلّ رؤيته ستخرجها ممّا هي عليه.

– لا يوجد عذر للخيانة يا مجد، ثمّ ماذا إذا رفض؟

– وقتها سأتأكّد أن كان لا يريدها، سأخبرها بكلّ شيء، وأتقدّم للزواج بها حالما تشفى..

– هل جُننت يا مجد! ستتزوج خطيبة أخيك السابقة؟ هل ستوافق أمّك؟ وهي تعلم أنّ هذا الأمر سيفرق بينك وأخيك؟ هل ستتزوج امرأة تعلم أنها تحبّ أخاك؟

– لا تنس أنها ابنة عمّي يا حسام، وعِرضها هو عِرضي.. هناك أولويات، لا يهمّ إن كان قلبُها لا يزال يحبّه، المهم أن أظلّ بجانبها وأحميها خصوصًا أنها الآن تعرّضت للاغتصاب يا حسام، ستنظر لنفسها أنها امرأة غير مكتملة، وأنّه لن يتقدم لها أحدٌ للزواج، لن أتركها ولو كلفني ذلك حياتي.

– طيب يا صديقي. والآن اذهب لأمّك إنها تشتاق لك كثيرًا، مَن يملك قلبك يا مجد! لم يبقَ مثلك في هذا العالم.

أوصل حسام «مجد» أمام منزله بسيارته، ثمّ ذهب بعد أن اطمأنّ عليه وهو يتألّم لأجله..

ما أن دخل مجد إلى منزله حتى ارتمى بين أحضان والدته يقبّلها ويعتذر لها، كانت دموعها تنهمر وهي تداعب شعرَه، وتعاتبه على غيابه وما فعلَه بنفسه، كانت تشعر بقلبه يتأوّه، ولا تملك إلّا أن تدعو له.

نظرت عائدة أمّ مجد إلى ابنها بكلّ حنان، ووضعت له الشاي فوق الطاولة:

- مجد، أعلم أن مشاعرك نحو جنان أبعدُ بكثير من مشاعر أخ لأخته، أو ابن عمّ لابنة عمّه، اسمعني يا بني.. قلبُ الأم لا يكذب، حاول أًن تنزع هذا الحبّ من قلبك، والتفت لمستقبلك قبل أن يتسبّب في ضياعك. مجد، حتى لو كان زواج أخيك مجرّد نزوة ويعود بعدها لجنان.. هل تظنّني سأرضى بأن يتزوّج فتاة....

- ماما!!

- مجد، لا تقاطعني، أعلم جيدًا أنها شريفة وذات عفة وأخلاق، لكنّ الحبّ لا يكفي، سيكون هناك دائمًا حاجزٌ أمامك.. شعور بأن هناك شيئًا ما بينكما.. ثمّ حبّك لجنان قد يفرق بينك وبين أخيك ولن أسمح بهذا أبدًا.. لقد أفنيت عمري في تربيتكم، وحرصت على نجاحكم، لن أسمح بأن تتشتّت عائلتي بسبب فتاة ولو كانت جنان نفسها.

ثمّ انصرفت لتترك "مجد" يغوص في بحورٍ من الحيرة والألم، وكلّ خلية في جسده تنبض باسم جنان.

لم يستطع مجد إغماض جفنه، تتصارع في رأسه الأفكارُ طوال الليل.. فقط فكرة النسيان تؤرقه.. ليته ينسى.. الذكريات تعبث به، توقدُ في صدره نيرانًا ملتهبة..

يفكر في المستقبل، وفي الفتاة التي احتلّت سويداء قلبه.. في الأبواب الموصدة في وجهه من كلّ جانب.. وفي الحلول الشّبه منعدمة..

«ترى كيف حالها؟» استيقظت في داخله أوجاعُ الحنين، جعلته يتمنّى الموت، قام من مكانه، توضّأ واتّجه إلى محرابه، ولمّا التقت جبينُه الأرض بكى، وقال: «يا ربّ وحدك تعلم حالي، وإن كان لي أمنية واحدة فلتكن أنْ أرى البسمة على ذلك الوجه من جديد، يا الله.. ارحمْ قلبًا أنهكه العشق، ولم يعصِك يومًا في مَن عشق»..

استخار الله، ولمّا عزم الأمر اتّصل ليحجز أول طائرة لفرنسا صباحًا، جلس إلى مكتبه وخطت أنامله رسالة لأمّه ختمها بدمع العين:

«أمي، قرّة عيني أنت، أعلم أنّ الكلام الذي قلته البارحة لم يكن سوى من خوفك علينا.. أمي أقسم بمَن جعل الجنة تحت قدميك أنّ حبّي أسمى من أنْ يتبعه فتنة أو أذى..

وأنا أمضي الآن في طريقي، أسالك الدعاء يا أمّي، هذا كلّ ما أحتاجه.. وذهابي ليس عصيانًا لك، بل أنا على يقين أنك تحملين قلبًا طيبًا لن يسمح بضياع عِرض عفيفة، وأنك ذات عقل تترفّعين به عن سفاسف الأمور..

قد كتمت حبًّا نشأ معي منذ نعومة أظافري، وما دفعني للبوح به غير رغبة طيبة في فعل الخير.. وأنت من أنشأتني على حبّ الخير..

أمّي، وحده خالقي يعلم كم أحببتُها، وما أنا ببالغ أمري إلّا برضاك.. ارحميني يا أمي، أحتاج إليك كثيرًا»..

- كيف حال صغيرتي المدلّلة؟

دخل عمر وفي يديه كوبَا قهوة قدّمهما لجنان وسلمى، بادلتاه بابتسامة، وجلس إلى جوارهما يتبادلون الضحكات وأحاديث طريفة..

كانت جنان تشعر بلحظات دفء اشتاقت لها، خشيت أن يكون مجرّد حلم من نسج خيالها، وأن تستيقظ فجأة على لا شيء.. وبقايا حزن وذكريات.

وجود سلمى وعمر إلى جانبها مدّها بقوة عجيبة، ودافعٍ كبير للحياة..

رأت فيهما الحنان الأبوي الذي فقدته.. تمنّت أن لا تنقضي هذه اللّحظات أبدًا.. وأن يطول بقاؤها في المستشفى كي تنعم بهذا الإحساس أكثر.

سلمى تقضي عندها كاملَ اليوم، عادت بين يديها فتاة صغيرة كانت تقرأ لها الكتب، تسرح شعرَها، تهتمّ بها كما لو كانت بنتَ رحِمِها.

وعمر، الرجل الطيب الوقور.. لا يتوانَى لحظة عن العناية بها وإغراقها بالهدايا..

تنظرُ في عينيهما فترى فيهما الصدق والطيبة..

كم تتمنّى أنْ تمسك بيديهما بقوّة وتترجّاهما ألّا يتخلّيا عنها.. صارا كلّ عالمها وملجأها كلّما داهمتها الذكريات المؤلمة.. كلّما تماثلت صحّتها للشفاء

خشيت الفراق.. تركا في نفسها أثرًا لن تمحوه الأيام.. ستظلّ ممتنّة لهما ما حيت..

* تعلّق قلب سلمى بجنان كثيرًا.. تريد لو تحتفظ بها بين جنبات أضلعها تفيض عليها بكلّ الحبّ والحنان، أن تجعل منها ابنة وصديقة وتعوّضها عن كلّ ما مرّ بها.. رغبتها قوية في أن تجعل منها كلّ عائلتها.. لم يخبْ ظنّها لمّا رأت فيها بلسمًا لجراحها، بل أحبّتها أكثر وقد عادت إليها الحياة.. أحست أنها تعرف هذه الفتاة من زمن... شعرت أنها منها، خصوصًا بعد أن شُفيت على يديها، وأقسمت ألّا تبتعد عنها مهما كان الثمن..

– دكتورة سلمى.

– نعم صغيرتي.

– لن أنسى أبدًا ما فعلتِه من أجلي، ليتني أستطيع أن أقدّم لك ولو قليلًا.

أخذتها بحضنها، وهمست:

– جنان، تريدين حقًّا لو تسعديني؟

– طبعًا.

– إذًا، تعالي للعيش معي..

لم تكترث بعلامات الذّهول التي أصابت وجهَ جنان، وأردفت:

«أعيش وحيدة منذ عشر سنين.. ولم أفتح قلبي وحضني لأحدٍ غيرك منذ تلك الحادثة.. أشعر أن الله أرسلك إليّ. في قلبي لك مكانةٌ عظيمة.. هل لك أنْ تؤنسي وحدتي؟ وجودك إلى جانبي يعني لي الكثير، ستواصلين دراستك وتزورين أهلك ويزورونك متى شئت.. أرجوك».

أنزلت رأسَها وأطرقت للحظة.. ظنّت سلمى أنها لن توافق، لكنْ خرج صوتها برقّة لا متناهية:

– بكل سرور.

* وصل مجد مساءً إلى باريس ليجد صديق حسام ينتظره في المطار ليقضي عنده أيامَ مكوثه هناك بتنسيق من حسام.. كان قرارًا سريعًا بحيث لم يكدْ يصدّق أنه خارج الوطن، وفي فرنسا، ولوحده..

خشي أن يندم، لكنه طرد الأفكار السيئة من رأسه، وحاول الانسجام مع مَضيفه..

لم يكن يعلم عن أخيه أحمد سوى اسم الشركة التي يعمل بها كمهندس؛ فقد انقطعت أخباره عنه منذ زواجه المفاجئ، وهو الذي ذهب للعمل في الخارج بعد خطبته لجنان ليعود بعد إنهائها دراستها ليتزوّجها كما خطّطا.

هو يعلم أنّ جنان لا تزال تحبّه، وأنها لازالت على أمل عودته أو اتصاله، ومعه مبررات قبل أن تحصل لها تلك الكارثة..

كان قلبه يتمزّق كلّما تذكّر الأمر، فيشيح بوجهه كأنه يطرد الخاطرة المؤلمة من ذاكرته..

بدا الجو لطيفًا، لكم تمنّى لو أنه جاء لغير هذا الأمر، وذاكرته خالية من أي وجعٍ كي يستطيع الاستمتاع بجمال باريس، لكنه كان عاجزًا عن رؤية أي جَمال بعدها..

كان صديق حسام في غاية اللّطف، ورحّب به في حفاوة في منزله المتواضع.

أخذه إلى غرفته ليستريح بعد أن تناولا الطعام معًا وتبادلا بعض الأحاديث، ثمّ اعتذر منه الخروج لقضاء بعض الشئون الخاصة، وأوصاه بأن يتصرّف على راحته.

نام مجد نومًا طال عهدُه به منذ تلك الحادثة الرهيبة ليستيقظ على صوت مَضيفه يدعوه للعشاء..

وفي الليل، راودته تلك الكوابيس من جديد، وعاد الحنين يعبث به، كان يفكّر في لقائه بأخيه الأكبر الذي لم يرَه منذ عام ونصف.. هل سيكون لقاء حميميًّا كعادتهما، أم لقاءَ غريبين في الغربة؟ كيف سيواجهه بالأمر؟ وكيف ستكون ردّة فعله؟ لكن كلّ تلك الوساوس لم تكنْ لتقتل فيه- رغم كلّ شيء- شوقَه لأخيه، وفضوله المُلحّ لمعرفة أخباره.

في الصباح الباكر، استقلّ مجد سيارة أجرة، وضعته أمام الشركة التي يعمل فيها أحمد..

ترجّل من السيارة، واجتاز الحديقة التي تفصله عن مبنى الشركة ليجد نفسَه أمام بناية شاهقة تبدو عليها الفخامة.

اتّجه نحو الباب الرئيسي، ودخل إلى قاعة الانتظار، تحدث مع السكرتيرة ليسألها أين يجد أخاه، أجابته بالفرنسية: المدير!؟ إنه الآن في اجتماع، لكن هل أخذت موعدًا لتقابله؟»

استغرب من كلامها، لكنه لم يبدِ أيّة علامات اضطراب..

– أخبريه أنّ «مجد».. يريد رؤيته، الأمر مستعجل.

أجرتِ اتصالًا، ثمّ طلبت منه أن يرافقها لمكتبه، فتحت له المكتب، وطلبت منه أن يجلس ليرتاح في حين تعدّ له القهوة..

جال ببصره في أنحاء المكتب، لا يسعُه أنْ يصدّق أنّ أخاه الذي جاء هنا موظفًا صار في هذه المدة القصيرة مديرًا.. في شركة كهذه..

وقعت عيناه على صورة وضعت فوق مكتبٍ لأخيه، وبجانبه امرأة شقراء.. استنتجَ أنها زوجته.. اقترب وأخذ الصورة بين يديه، كان يتحرّق شوقًا له، ولمعرفة السبب الذي جعله يتخلّى عن جنان بهذه السهولة.. تساءل « تُرى هل أحبّها؟» لكنه لم يرَ في صورتهما ما يدلّ على أن بينهما مشاعر حبّ..

حتى أنّ هذه المرأة لم تكن من النوع الذي يحبّذه أخوه، كما أنها ظهرت له أكبرَ منه بقليل..

قطع تفكيره صوتُ الباب الذي فُتح بقوّة.. ظهر أخوه وبقي جامدًا لبرهة، لا شكّ أنها كانت مفاجأة غير متوقّعة له، لا شكّ أنه قنطَ من اتصالهم به، فلم يتخيّل أنه قد يرى أخاه ماثلًا أمامه وقد قطع كيلومترات لأجله، تقدّم خطوات منه فاغرًا فاه كأنه لا يصدّق، ابتسم مجد يشجّعه على الاقتراب أكثر.. نسي غضبَه منه وحيرته حالما رآه، بعد عام ونصف لم يفترقا قبلها مطلقًا.

وضع أحمد يدَه على كتف مجد، وقال: «ما زلت لا أصدّق».

ضحك مجد وطوّقه بذراعه بشدة: «ليتك تدرك كم اشتقنا إليك يا أحمد!»

دعاه إلى الجلوس، وطفق يسأله بشغف عن أحواله وأحوال دراسته هو وأخته..

وجلس مجد أمام أحمد الذي اعتدل في مكتبه، رأى في عينِ أخيه شيئًا لا يفهمه، أحسّ بفطرته أن هناك أمرًا ما.. سرًّا دفينًا.. ثمّ نكس أحمد رأسه، وسأله:

- كيف حال أمي؟ هل مازالت غاضبة مني؟

– لا تقلق يا أحمد، أمّي تحبّك كثيرًا، وهي تشتاق لك كلّ لحظة.. حتى أنها علقت صورك في كامل البيت تقريبًا حتى تراك أينما حلّت.

– إذًا، لماذا لا تجِبْ على اتصالاتي؟ لقد أخبرتني ليلى آخر مرّة أنها جعلتكما تقسمان لها على عدم التحدّث معي.. لقد تضاعفت غربتي يا مجد وأنا أختنق كلّما فكّرت بكم.

– لقد كانت هذه خطّة يا أحمد، فعلت هذا كي تُجبرك على العودة، تألّمت كثيرًا لمّا علمت بزواجك هذا.. خشيت أن تخسرك.. ظنّت أنك ستعود مشتاقًا إنْ قست عليك بهذه الطريقة، أسمعها كلما صلّت وهي تدعو لك، لقد نادتني باسْمك مرّات كثيرة، هي لا تستطيع أن تغضب منك مهما فعلت يا أخي، أنت دون غيرك.

ملأ صدره هواء، وزفرَ بقوّة، ثمّ اتكئ بكامل جسده على مقعده، ورفع رأسه وظلّ ينظر إلى السقف، كأنّه نسي وجود مجد..

باغته مجد بسؤاله: «كأنك لم تسألني عن جنان يا أحمد؟».

أخذ قلبه ينبض بقوّة حالَ سماع اسمها، ووخزت الدموعُ عينيْه، وضع رأسَه بين كفّيه، وسأله:

– هل تعلم؟ لم تخبروها.. صح؟

– أخبرتها ليلى سهوًا.. نسيت أن أحذّرها..

تقلّصت ملامحه، وشعر بقلبه ينبض داخل رأسه، وصرخ: «لا.. لا.. أوف».

تعجّب مجد، توقّع أنه قد نسيها، خصوصًا لمّا تجنّب السؤال عنها؛ فبادره:

– أحمد، هل ما زلت تريدها؟

نظر له بريبة، وأجابه دون أن يفكر:

– طبعًا.. لا يمكن أن أنساها.

للمرّة الأولى شعر مجد بالغيرة، أمّل في نسيان أخيه لها، لكنه لم يتوقّع العكس..

– لكن، أنا لا أفهم.. لماذا تزوّجت بغيرها إنْ كنت تريدها؟ وتركت المسكينة تتعذّب لأجلك؟

– ليس الأمر كما تتوقّعون، كان زواج مصلحة، لم أكن أعلم أنّي سأتورّط بها، والدها مالك هذه الشركة التي أنا الآن مديرها.. منذ أن كنت مجرّد موظف تعرّفت عليها عن طريق أصدقاء، ولمّا اعترفت لي بإعجابها رأيتها فرصةً لا تعوّض، كنت أطمع في تحقيق ثروة، ثمّ أعود إلى أن.. حصل ما لم يكنْ في الحسبان.. وحملت بابني وقد كنا اتفقنا على عدم الإنجاب.

شعر مجد بالدّم يتصاعد إلى رأسه، وصرخ بانفعال:

– وجنان!؟ ألم تفكّر فيها؟ هل أعماك حبّ المال لدرجة أن تتغاضى عن حبّك لها وأنت تعلم أنّ هذا الأمر سيؤلمها؟ هل طغتْ عليك أنانيتك هذه المرّة لدرجة أن تخون ثقة فتاة أمّنتك على قلبها؟ إنّها يتيمة يا أحمد! كيف تفعل بها هذا وأنت تعلم كم ستتأثّر؟ لمَ جعلتها تتعلّق بك، وأغرقتها بالوعود الزائفة إنْ كنت تعلم أنك أضعف مِن أن تتحمل حبّها وطيبتها وتحافظ عليها؟ الأجدر أن تتركها لمَن يستحقّها ويحافظ عليها بدل أنْ تظلم فتاة مثلها.. سلِ الله أن يسامحك يا أحمد.

– مجد، كفّ عن استفزازي! هل قطعت كلّ هذه المسافة لتقول لي هذا الكلام؟ لا تمرّ بي دقيقة لا أفكّر فيها بجنان.. هل تظنّ أني سعيد يا مجد؟ لم يكن هذا ما خطّطت له أبدًا.. كان عرضًا مغريًا لا يصمد أمامه أحد، حسبته زواجَ مصلحة سينتهي بعدها كلّ شيء وأعود لها مجددًا.. لكنْ وجدت نفسي في مأزق، كيف تريدني الآن أن أترك ابني؟ سأجدُ حلّا يا مجد، وجنان ستتفهّم الأمر، أنا متأكّد.. لكن أرجوك الآن أصلحْ بيني وبين أمّي فقط.. جنان اتركها لي..

– أمي غضبُها مجرّد فترة ويزول؛ فهي لا تصبر على ابنها المدلّل، لكن جنان أخشى أن تكون قد خسرتها للأبد.

– مستحيل.. أعلم جيدًا كم تحبّني، وستتفهّم إنْ لم تكن لي فلن تكون لغيري، لن أسمح لرجل آخر أن يقترب منها مهما حصل.

- أنانيتك هذه إنْ لم تقتلها؛ ستقتلك يومًا يا أحمد.. امضِ في حياتك التي اخترتها يا أخي، كان عليك أن تفكّر مليًّا قبل اتخاذ قرار كهذا.. واترك جنان لَمن يستحقّها.

- اخرس!

صرخ أحمد ضاربًا بقبضتيه المكتب، واسترسل:

- اسمع يا أخي الصغير، ابقَ بعيدًا عنها.. أنا أحذرك، لست غبيًّا كي لا أعلم مشاعرك نحوها.. كنت أعلم هذا منذ مدّة ظننتها نزوةً وتزول، لكن يبدو أنّ الداء قد استفحل بك. جنان تخصّني يا مجد، ابقَ بعيدًا عن أشيائي.. أتسمع؟ منذ صغرك تهوى العبث بممتلكاتي.. لم أعلم الأمر سيصلُ بك إليها.. إنها لي.. واضح؟ لا تشعل بيننا حربًا تعلم أنك ستخسرها لا محالة.. لن تكون لغيري، حتى وإن لم تكنْ لي.. مفهوم؟

- تتحدث عنها كأنك تتحدّث عن مادياتك يا أحمد، إنها أغلى بكثير من أن تكون لك. أكاد لا أعرفك يا أخي، لو كنت تحبّها حقًّا لكنت بجانبها الآن، أنت حتى لم تسأل عن أحوالها، ولا تعلم عنها سوى أنها على قيد الحياة.. هذا حبّ تملّك وأنانية مُفرطة يا أحمد.. دعني أرى حبّك يا أحمد إنْ علمت أنّ جنان...

وسكت لحظة، وقد تحول كلّ غضبه إلى انكسار، واغرورقت عيناه... تملّكت الحيرة والخوف أحمد فقال:

– ما بها جنان؟! تكلّم..

لم يقوَ على التّلفظ بها، وكأنه استنفذ كلّ ما في جعبته من كلام آنفًا..

– تكلّم يا مجد، لا تلعب بأعصابي. صرخ أحمد حتى حسب أن صوتَه ملء أركان الشركة..

– تعرّضت جنان للاغتصاب يا أحمد، وهي الآن في مركز إعادة التأهيل إثرَ انهيار عصبي..

تمنّى لو أن الأرض تنشقّ وتبتلعه.. نزل عليه الخبر كالصاعقة.. بقي جامدًا للحظات، ثمّ انهار جالسًا على الكرسي.. قبض على رأسِه بكلتا يديه وضغط بشدّة.

تمتمَ بكلمات غير مفهومة.. "مستحيل.. كيف؟.. كيف حصل!! ومتى؟ ومَن؟"

خرجت الحروف منكسرةً بصعوبة مَن ينطق لأول مرّة..

– نُدماء عمّي.. إثر جلسة خمرية كالعادة في بيته، وضعوا له المنوّم.. و..و.. ولمّا استفاق عمّي انتحر شنقًا؛ لم يستطع التحمّل.

قتلت فيه كلماتُ مجد كلّ ما تبقّى له من قدرة على التحمّل، ظلّ بصره معلقًا في مجد كأنه يستنجد به.. يتمنّى لو أنه مجرّد كابوس يستفيق منه سريعًا..

– أملي في الله كبيرٌ يا أحمد، أنا متيقّن أنها ستتجاوز هذه الأزمة، وسأتقدّم لها للزواج، لن أتركها تشعر بالنّقص أو المهانة.. سأفعل ما بوسعي لأجلها.. وداعًا.. أخي.

وخرج تاركًا أخاه وراءه شبْه ميّت...

* لأوّل مرّة يشعر بالندم يمزّق أحشاءه، بالألم الذي باغته على حين غفلة، مأزقٌ تلو الآخر، لمّا ظن أنه بصدد تحقيق أحلامه؛ كان في الحقيقة على شفا جُرفٍ هار.. انهارت كلّ أحلامه أمامه..

لعنَ كبرياءه، طموحاته.. واليوم الذي جاء فيه إلى فرنسا شابًّا طموحًا يأمل في إنجازٍ ينسيه سنوات من تعب الدراسة، ألقى بنفسه في أول سفينة ستجتاز به المحيطَ إلى الضفة الأخرى التي رأى فيها جنّته الموعودة، وعندما وصل أضاعَ طريقَ العودة، بقي بلا عنوان.. غارقًا بين الماضي والحاضر، لم يستطع أن يتأقلم مع حاضره أو ينسى ماضيه الذي قطع الحبل الذي يربطه به عندما ترك العنان لأنانيته تقوده، ضاربًا بمشاعره وضميرِه عرض الحائط.

منذ أن كان صقرًا يحلّق في أعالي السماء، وجد نفسه عصفورًا في قفصٍ من ذهب، صريعًا بين مرض داهمه يزلزل أركانه، وواقعٍ يسخر من أحلامه بحقارة ومشاعر منهكة.. تزيده عذابًا وحنينًا لماضيه، لنفسه القديمة، ولكلّ الذكريات الجميلة التي تحوّلت الآن لشبح لا يترك موضعًا في جسده الذي مازال يقاوم؛ إلّا وغرس فيه أنيابَه.

يتذكّرها، تغرق فيها كلّ تفاصيله، لم يكن يعلم أنه قد أحبّها حقًّا لهذا الحدّ.. كبرت أمام عينيه، كانت طفلتَه التي تتعلق برقبته في الليل خوفًا من الأشباح، وهي الآن الشبح الذي يطعن ضميرَه.

تعلّقت به كثيرًا منذ جاءت لهذه الدنيا رضيعة كانت تهوى مداعباته وتشاكسه كلّما رأت منه فتورًا أو قلقًا حتى تضحكه.. كانت تضحكه، ثمّ تضحك لضحكِه.

يتذكّر كيف كانت أمّها تأتي بها إليه في منتصف الليل لمّا ترفض النوم، فتغفو بين ذراعيه..

كيف كانت تفضّله عن الجميع منذ طفولتها، رآها أمامه طفلةً بريئة.. فمراهقة خجولة.. فشابة جميلة مكتملة الحسن.. سخر منها يوم جاءت تصارحه بحبّها، كان لأخرِ تلك اللحظة يراها مجرّد طفلة.. بكتْ يومَها أمامه لاستهزائه بمشاعرها.

ونسي أنّ مَن ضحك على شيء ابتُلي به.. ليحبّها شابّة يزيّنها الخجل والحياء، لم يرَ لها مثيلًا وهو الذي خاضَ علاقات مع الفتيات بعدد شعر رأسِه. كانت مختلفة، لم تكن الأجمل ولا الأذكى، كانت مختلفة وحسب؛ براءتها، وعفويتها، والحياء الذي يكسوها بحمرةٍ تداعي وجنتيها كلّما خجلت جعلوا منها فاتنة. كان يرى الفتيات مجرّد وسيلة للّهو والحبّ في

عقيدته مَضيعة للوقت ومِن تفاهات الأمور.. حتى أحبّها؛ فكانت نقطةَ ضعفه الوحيدة في هذه الحياة.

يعتبرها مِلكه، ولا أحدٌ سيقترب منها، لم يكن تهمّه سعادتها بقدر ما يهمّه أن تكون له فحسب..

كم أبكاها لعدم مبالاته، لإهماله ولتعمّده إثارة غيرتها التي كانت تقتلها، فيرضيها ببضع كلمات. كم كان سهلًا إرضاؤها!!

كان يتعمّد القسوة عليها أحيانًا، يكره حبّه لها، يراه يحطم كبرياءه، ويحول بينه وبين ملذاته وهو الذي كان كافرًا بالحبّ..

الآن يراها كنزَه الضائع الذي تركه وجاء يبحث عن كنزٍ آخر ليجده سلاسلَ من ذهب. ليت تلك الأيام تعود ليستغلّ كلّ لحظة مضتْ في إسعادها، لكنّه الآن عاجز حتى عنْ إسعاد نفسه، غارقٌ في متاهة قد لا يكون لها حلّ أبدًا.

* وضع مجد حزامَه حوله، وأغلق هاتفه، وسرح في الأفق بعيدًا.. يتخبّط في مشاعر شتى؛ شعور النصر لأنه واجه ضعفه واعترفَ لأخيه، الغضبُ من أخيه الذي تركهم من أجل المال، والشفقة عليه، إحساس قوي يخبره أنّ هناك سرًّا ما.. أمرًا آخر يخفيه عنهم، قرأ في ملامحه شيئًا لم يفهمه.. مخبئًا تحت قناع الكبرياء الذي قد يموت دونَ نزعه. والأهمّ من هذا كلّه شوقه له

وخوفه الشديد عليها. تذكّر أنّ للمسافر دعوةً لا ترد، فلم يذق غمضًا وهو يلهج بالدعاء لها طول الطريق.

وصل في المساء، واستقلّ سيارة أجرة للمنزل، قلبه وجلٌ من مواجهة أمّه، يعلم أنها ستسأله عن أحمد.. لا يعرف بما يجيب، مزاجُه لا يحتمل أي عتاب.. يحتاج فقط إلى قسطٍ من الراحة.

دخل إلى المنزل وعلاماتُ الإرهاق ظاهرةٌ على وجهه، وجد أمَّه وأخته ليلى في انتظاره، كانت أسارير وجوههم منشرحةً، وعليهما علاماتُ الانبساط عكس ما كان يتوقّع.

جرت نحوه ليلى، واحتضنته بقوّة:

- الحمد لله على سلامتك يا أخي.

احتضنها وطبعَ قبلةً على وجنتيها، ثمّ انحنى نحو أمّه التي كانت جالسة على مقعدها، قبّل رأسها

- اشتقت إليك.

- سلامتك حبيبي. (وطوّقته بذراعها).

شعر بالارتياح لأنّ المقابلة مرّت بسلام، كان يتوقّع أن تنهال عليه بالأسئلة عن أحوال أحمد وما عرفَ عنه، لكن لم تفعل، اعتذر ليأخذ قسطًا من الراحة.

– ماذا يا أمّي! هل تخبرينه، أم أخبره أنا؟

خاطبت ليلى أمّهم بانشراح بالغ.

وقفت والدته من مكانها، واتّجهت نحوه، وضعت يدَها على رأسه في حنوّ..

– البارحة، كنّا عند جنان، لقد اتصلوا من المستشفى.. إنها بخير الآن والحمد لله، تعافت تمامًا.

كادَ يغمى عليه من شدة الفرح، أخذ أمّه بين أحضانه، وضحكاته ملأت أرجاء الغرفة، كانت ليلى تنظر إليه في زهو، كان أخاها المقرّبَ وحافظَ أسرارها.. منذ زمن لم ترَه بهذه السعادة، لقد غاب الفرح من البيت منذ ذهاب أحمد وزواجه، ثمّ الفاجعة التي حلّت بابنة عمّهم، والآن تراه أمامهم يرقص فرحًا، ثمّ اتّجه نحوها ووضع يدَه على كتفيها:

– أحقًّا يا ليلى! كيف حالها؟ هي الآن في بيت خالتها؟ سأذهب إليها، لن أنتظر أكثر.. هيّا معي..

– لا يا مجد، جنان لم تعدْ إلى منزل خالتها.

– إذًا، أين هي؟ هل مازالت في المستشفى؟

– لا يا مجد.

– مهلًا.. لا تقولي لي أنها عادت لبيتها، وأنها الآن مع زوجة أبيها؟

– على رسلك يا أخي، لقد أصرّت طبيبة جنان على أن تعود معها إلى بيتها، وجنان اختارت العودة معها، وهي منذ الآن ستقيمُ عندها؛ طبيبتها امرأةٌ مطلّقة، وتوفيت ابنتها الوحيدة منذ سنوات، نشأت بينها وجنان علاقةُ صداقة متينة، لا تقلق إنّها امرأة طيبة جدًّا، ولها فضل كبير على شفاء جنان بعد الله، لو تراهما يا مجد كأنّهما أمّ وابنتها، كأنّهما يعرفان بعضهما منذ سنوات.

بدتْ عليه علامات الدهشة، ثمّ سرعان ما تلاشت وعاد إلى نشوته.

– طيّب يا ليلى، أعطني عنوانها؛ يجب أن أراها الآن.

تدخّلت أمّه:

– لماذا لا تنتظر إلى الغد يا ابني؛ سنذهب جميعًا معًا، ثمّ إنك مرهق..

– لا يا أمّي، لن أستطيع الانتظار أكثر.

أشارت أمّه لأخته أن تذهب معه، وطلبت منهما أن لا يتأخّرا؛ لأن لها الكثير من الكلام مع مجد.

تأبّط ذراع أخته كطفلٍ صغير، ملامحه تشعّ غبطة وسرورًا، يسابق الدقائق وفي قلبه فرحٌ يسعُ الكون.. صعدا السيارة باتّجاه العاصمة.

كانت جنان في البيت تنتظر عودةَ سلمى من العمل، تشتاق إليها كلّما ذهبت، فتغوص من جديد في أحزانها، أصبحت هي الوحيدة التي تبدّد عتمة روحها.

أطلّت عليها كالشمس من وراء الغيوم، فأصبحت كلّ ما لديها.

تسير في أرجاء المنزل، كم أحبّته! لا تصدّق أنها ستعيش فيه باقي عمرها، بدأ شعور الوحدة القاتل يتسلّل إلى نفسها، فذهبت لغرفتها وانغمست في القراءة، ملجؤها المعتاد من وحشة الفراغ والذكريات التعيسة.

ولأوّل مرّة، لا تشعر بطعم الكلمات التي كانت تنزل بلسماً على روحها، شيء ما يمنعها من التركيز.. يعود أمام عينيها طيفٌ تعرف صاحبَه جيدًا، كيف لا!! هو يسكن روحها رغماً عنها.

تحاول النسيان، فتغمض عينيها كي لا تراه؛ فتراه أوضح. وضعت يدَها على قلبها.. ينبض بقوة، مازال كعادته تتسارع دقّاته كلّما مرّ بذاكرتها، تدرك أنه داءٌ عضال قد لا تشفى منه أبدًا، لكنها تحاول أن تتعوّد، أن تتقبّل فكرة الفراق.

تتمنّى لو يعود الآن.. ستغفرُ له، نعم ستغفر له كلّ شيء، فقط لو يخبرها أنها مازالت الوحيدة في قلبه رغم ما حدث.. لو يقبلها كما هي.

سمعت، فجأة، طرقاتِ الباب.. تُرى هل عادت سلمى بسرعة؟ هل أحست بألمها فعادت لتربتَ على قلبها كعادتها؟

سارعت الخطى وفتحت الباب، كاد قلبها يقفزُ من صدرها.. تراجعت خطواتٍ للوراء وصرخت:

– أحمد!!

* بقي مجد متسمّرًا في مكانه، واختفت ابتسامته فجأة.

لم تعلم جنان لماذا رأتْ فيه طيف أحمد فجأة، وسارعت لتزيل الحرج:

– مجد... لا أصدّق!

– تفضّل، ادخل.

... وأطلّت من ورائه ليلى:

– مفاجأة!!

ارْتمت في حضنها:

– كم اشتقت إليكما!

أدخلتهما إلى البيت، وذهبت، بخفّة، لإحضار المشروبات. بدا مجد شبهَ مأخوذ من الدنيا، ينظر لها فقط وهي تشاكس ليلى، وإن غض البصر عنها؛ فقط أطلق العنان لأذنيه تمتلئ من صوتها، وروحه تعانق روحَها.

ولئن آلَمه نداءاتها له بأحمد إلّا أنّ سعادة رؤيتها معافاةً سدّت كلّ فتحة في نفسه قد يتسرّب منها الألم في تلك اللحظة.

– مجد، كيف حالك يا ابن عمّي؟ حقًّا افتقدك، لم تأتِ معهم البارحة، أخبروني أنك كنت مشغولًا.

جاء صوتُها بلمساته الساحرة التي تضرب أذنه، أوقد الحرارةَ في شرايينه، فاعتلت وجهه حمرةٌ خفيفة..

- الحمد لله بخير، الحمد لله على سلامتك.

ابتسمت له بعذوبةٍ وأردفت:

- كيف حال دراستك؟ لم يبقَ الكثير على موعد التخرّج، صح؟ أتمنّى أن أراك في أعلى القمم كعادتك، أثقُ بك كثيرًا، وأعوّل عليك، سأكون مسرورة جدًّا لأجلك وفخورةً بك، وأعلم أنك لن تخيّب ظنّي.

ودّ لو يمسك بكلتا يديها ويضعُهما على صدره لتتحسّس دقات قلبه، آه لو تعلم أنه سيفعل أي شيء لأجل عيونها، لأجل أن يقتل الحزن الذي لم يرحلْ منهما بعد، وحده مَن يقدر على قراءة لغة تانك العينين.. لقد أضاع الكثير، وتخلّف عن دروسه منذ مرضها، وهو الآن يشعر بطاقة قد يحطّم بها الصخور.. سأفعل لأجلك.

- بإذن الله يا جنان، سأكون عند حُسن ظنّك. وأكمل:

- جنان، طمّنينا عليك، هل أنت مرتاحة هنا؟ تعالي معنا للمنزل، لم يبقَ القليل على التخرج. سأذهب بعدها للعمل في الخليج أنا وحسام كما خطّطنا، ستبقين مع ليلى وأمي في المنزل، لا يوجد ما يقلقك بعد.

تحمّست ليلى للفكرة، وأجابت بحماس:

– نعم يا جنان أرجوك، تعالي معي، ولنعدْ تلك الأيام الخوالي، أرجوك، أشتاق إليك وإلى تلك الأوقات الجميلة.. سننسى كلّ شيء ونبني الحياة من جديد معًا.. أرجوك.

– حبيبتي ليلى، تعلمين أني لا أقدر أن أرفضَ لك طلبًا.. لكني حقًّا سعيدة هنا؛ الدكتورة سلمى كان لها فضل كبير علي وأنا أحبّها كثيرًا، وهي تعاملني كابنة لها، ابتعادي عنها سيغضبها وأنا أفعل أي شيء لأردّ جميلها، سأعود للجامعة مع بداية السنة المقبلة، وسنتقابل كثيرًا، ونعيد تلك الأيام.. اتفقنا؟

أمسكت ليلى بكفّيها:

– اتفقنا يا جنان، المهم سعادتك وراحتك أنت، سأزورُك كلّما سمحت الفرصة، كوني بخير لأجلنا.

سمعت صوتَ المفتاح في الباب، ثمّ فتح ودخلت سلمى بطلّتها المرحة وإشراقة وجهها..

ذهبت إليها جنان وطبعت قبلةً على وجنتيها..

نظرت نحو مجد وليلى بلطف:

– إذًا، لدينا ضيوف، مرحبًا بكم.

تقدّمت ليلى نحوها، وسلّمت عليها معرّفة بنفسها.. أجابتها مسرورة:

- مرحبًا يا ليلى، تشرّفت بزيارتك.

كان مجد جالسًا، وخاطبها بحياء:

- السلام عليكم دكتورة.

- وعليكم السلام يا ابني.

ألحّت سلمى عليهم البقاء للعشاء، وأسرعت لتحضيره، ذهبت ليلى لتساعدها وتعمّدت ذلك لتمنح أخاها فرصةَ البقاء مع جنان..

كانت تجلس أمامه، مبتسمة، لم يستطع رفعَ بصره إليها.. كانت نظرة واحدة إليها تأسر روحَه وتثير شجونه، ودّ لو يضمّها إليه.. لو يأخذها من عالم الناس إلى عالم خاصّ بهما، ولهما فقط، لو يخبرها كم يرغب فيها، وكمْ يشقى من أجلها، وكم فطرَ قلبَه الذي حواها من كلّ ما أحزنها. كم ودّ لو يحمل عنها كلّ أعبائها ولن يبالي، مادامت هي سالمة معافاةً منها.. لو يخبرها أنّ الكفّة التي هي فيها ترجح عن كلّ الدنيا وملذّاتها، وأن الموت يهون لأجلها..

أخرجته من شروده:

- مجد، عزيزي، لن أقدر مهما تكلّمت عن وصف مكانتك في حياتي، شكرًا لكل شيء.

– جنان، أنا لم أفعل شيئًا أبدًا، أنت تستحقّين كلّ خير، عسى القادم يكون أفضل، خفت عليك كثيرًا وتألّمت لأجلك. أنا حقًّا آسف، ولكنّني سعيد لرؤيتك.. سعادتي لا توصف. أنا معك وسأكون معك دائمًا. وكلّ هذا سيمضي، كوني قويّة فقط.

– آه يا مجد، لن أستطيع مكافأتك مهما فعلت، لا تقلق بشأني، لقد وقفت على قدمي مجددًا، وسأحاول أن أتخطّى ما حدث.

وقفت من أجل تحضير الطاولة للعشاء، مشت قليلًا، ثمّ نظرت له من فوق كتفيها، وخاطبته:

– مجد، لا أريد لأخيك أن يعلم ما حصل لي أبدًا.. من فضلك.

بعد العشاء، وإثر مغادرته المنزل، رافقتهما سلمى إلى الخارج، انتهز مجد فرصةَ غياب جنان ليتحدّث معها..

– دكتورة سلمى..

– نعم مجد..

– شكرًا لكلّ ما تفعلينه لأجل جنان، جميلك لا ينسى، جنان حسّاسة جدًّا، وقد خشيت أن لا تعود كما كانت بعد ما حصل.. كنت خائفًا من الهيئة التي سأراها فيها، لم أتوقّع رؤيتها هكذا.. ما فعلتِه عظيم.

– آه يا مجد، أنا أحتاج لجنان أكثرَ من احتياجها هي لي؛ لقد غيّرت حياتي وأضفت عليها معنى، أنا مَن يجب أن يمتنّ لها.

– جنان فتاة رائعة، وأنتما تتشابهان كثيرًا، وأتمنّى أن تشفى من جراحها تمامًا. أرجوك اتّصلي بي إن احتاجت أي شيء، وأعلميني بكلّ جديد.

وعدته بذلك، ولمّا همّ بركوب سيارته نادته، التفتَ إليها فقالت له:

– مرحبًا بك دومًا في منزلي يا مجد، سأكون سعيدة لو أصبحنا أصدقاء.

ابتسم لها، ثمّ مضى..

جلست سلمى أمام جنان على الطاولة تشربان الشاي، لاحظت أنها منكّسة الرأس تبتلع اللّقيمات غصبًا عنها، وفي وجهها قلقٌ لم تستطع إخفاءه رغم تلك الابتسامات التي تحاول اصطناعها بين الفينة والأخرى..

وبحنان الأمّ الذي تفجّر بداخلها منذ رأتها، قالت لها:

– جنان حبيبتي، مالك؟!

– لا شيء. أشعر ببعض التعب فقط.

اقتربت منها، وجلست بجانبها:

– تشتاقين له.. صحيح؟

نظرت لها بعينين تقطران براءة، وبعض الألم الذي لم يغادرها كليًّا...

– كثيرًا، لا أستطيع أن أمنعَ نفسي أن تحلّق إليه.. لو أحادثه.. لو أراه، وأفرغ كلّ ما في صدري من عتابٍ ولوم.. لو أشتمّه.. لو..؛ لارتحت كثيرًا، لكن لا أستطيع، يرهقني التفكير. كلّ ما حصل لي في الآونة الأخيرة يبعثرني أشلاء، فيأتي طيفُه ليُلمْلمني، أتعلمين سلمى؟ ما يبقيني صامدةً إلى الآن هو الأمل في عودته. لو لمْ يحصل لي ما حصل؛ لبقي كبريائي شامخًا ولمضيت بكلّ صبر وجَلد أسابق الرياح، لكنهم زلزلوا كلّ ما لدي من كبرياء، ليس لدي ذرة شكّ أني سأسامحه لو عاد يومًا، بل كلّ خيبتي فيه تحوّلت رجاءً لو يقبلني كما أنا الآن، لو يشدّ بيدي، ويقول.. ها أنا ذا، ومازلتِ في نظري تلك الأنثى المكتملة، سأنسى كلّ شيء.. لكنْ هل سيقبل ببقايا أنثى؟ أشعر باختناق وقهر.. أنا لا شيء.. لا شيء...

* وانهمر الدمع من مقلتيها حارًّا...

اجتاحت سلمى حالةُ ألمٍ عميقة، هي لا تنكر أنّ ما حصل لها أقوى مِن أن يحتمله إنسان بسهولة.. خاصّة فتاة في هشاشتها.. لكن ما مِن شيء يمكن أن يقتل روحَ الأنثى داخلها.. أخذت رأسها الصغير ووضعته على كتفها، وتسلّلت أصابعها تداعب خصلاتِ شعرها الحريري..

– كنتُ يومًا صبية مثلك، أشعّ براءة وحياءً، وأملك أحلامًا تعانق النجوم.. عشت في كنف والدين أغدقا علي كلّ الحبّ والرعاية، وأخوين

دلّلاني كثيرًا إذْ كنت الأصغر. توفّي والدي وأنا مازلت شابّة مثلك، آلمني فراقُه كثيرًا، لكنّي قاومت، بل زادني ثباتًا كي أحقّق حلمه وألتحق بكلية الطب. وهناك تعرّفت على رجلٍ رأيت فيه كلّ حياتي، أحببنا بعضنا كثيرًا، وتزوّجنا، وانتقلت أمّي للعيش مع أخوي في كندا بعد زواجي، كنت أحبّه لدرجة نكران الذات وأغفر له بلا حساب. أنجبت منه «نور» بعد محاولات عديدة وصبر إذْ شككت أني عاقر، لكن كرم الله كبير. كانت «نور» أجملَ ما حصل لي في هذه الدنيا.. بعد إنجاب نور لم أستطع أن أنجب، كان يريد ولدًا لكني لم أستطع أن أحقّق حلمه؛ فطلّقني ناكرًا كلّ ما فعلته لأجله. تألّمت كثيرا، لكنني صمدت من أجل ابنتي، أرادت أمّي أن أنتقل للعيش معهم في كندا لكنّي رفضت، أردت أن أبقى في وطني، في المكان الذي حقّقت فيه أحلامي.. انتصاراتي.. وخيباتي. توفّيت والدتي بعد ذلك رحمها الله، بكيتها كثيرًا. في تلك اللحظة فقط، أحسست أنني كبرت مائة عام.. كرست كلّ حياتي للعمل الذي أحبّ ولرعاية ابنتي. عشنا سعيدتيْن، استطعت أنْ أكون لها الأب والأم.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي اهتزّت فيه روحي وفقدتُ أغلى ما أملك في هذه الدنيا إثر عودتها من المدرسة، كانت تنتظرني لأمرّ عليها ونعود معًا للبيت، لكن كان لدي أمرٌ مهمّ في العمل استغرق منّي وقتًا، فطلبت منها أن تستقلّ سيارة أجرة وتعود للمنزل.. كانت جميلة جدًّا، تعلق بها الأنظار دائمًا..

❋ صمتت لوهلة، ابتلعت ريقَها وأكملت:

اختطفها السائق واغتصبَها وتركَها مرميّة في إحدى الأماكن الخالية.. ولكِ أن تتصوري إحساسي وقمّة الوجع الذي انتابني، دخلت في غيبوبة عميقة بقيتُ في المستشفى أيامًا.. وهي وحيدة عند إحدى قريبات أبيها، غيابي عنها زادَ حالتها سوءًا؛ فانتحرت.. لمّا استفقت كنت أنادي باسْمها ولمّا علمت كدتُ أصاب بالجنون، ودخلت إلى مركز إعادة التأهيل، بقيت هناك سنة ونصف، أتجرّع فيها كلّ أنواع المرارة.. الدكتور عمر كان الوحيدَ بجانبي، بذل كلّ ما بوسعه لأجلي، لولا الإيمان بقلبي لكنتُ الآن مجنونة أجوبُ الطرقات أو لكنتُ في عداد الموتى... لمّا رضيت بالقضاء والقدر، وطلبت معونة الله لم يخذلني.. اخترت الحياة، ووقفتُ من جديد، وقد تحوّل كلّ حزني إلى قوة وصبر، وسرتُ نحو أحلامي وحققت نجاحاتٍ لم أكن أحلم بها، وكان حبّ الخير ترياقي.. ورغم أخلاقي لم أسلمْ من كلام الناس، كنت لا أزال شابة وجميلة ومطلقة أعيش وحدي، لم أسْلم من المضايقات وعواء الذئاب حولي.. لكنّي اخترت أن أكون قوية، أنْ أكون سعيدة.. كوني امرأة لا يعني أنْ أستسلم للوجع. حاول إخوتي إقناعي بالزواج مرّة أخرى من رجل أعمال يكبرني بعشرين عامًا.. أرادوا أن يتخلّصوا من أنوثتي التي تخدش كبرياءهم كرجال، وتؤنّب ضمائرهم نحوي كمسئولية..

أرادوا دفني كي يمضوا في حياتهم مُطمئنين.. لكني رفضت أنْ أختبئ من عار أنوثتي تحت رداء رجل، لم تكن العفةُ بالنسبة لي أن آأسر نفسي بيد رجل يراني مجرّد جسد، بل أغلى بكثير. ومضيت.. الإيمان، الطموح، الصبر، الخير.. كانوا القيم التي ربطت على فؤادي، اخترت أن أمشي على الجمر، قسرت حياتي على العمل ومساعدة الناس.. ولا زلت أقفُ بثقة وأنا على يقينٍ أن الله معي ويخبّئ لي الفرح في أيامي القادمة. وأنت يا جنان، كنت أوّل قطرات المطر التي سقت في داخلي ورود الفرح.. أنت وردتي التي لن أسمحَ لها أن تذبل ما حييت»...

كانت كلماتها تطرق شغافَ قلبها، نزلت على روحها كبلسم: هذه المرأة العظيمة التي تراها أمامها هذّبت كيانها اليائس، وقادتْ به نحو الأمل.. فتنت روحَها.. رأتها معدنًا استثنائيًّا من الطيبة، لم تقل شيئًا.. صار يكفيها أن تكون إنسانةً مهمّة بالنسبة لامرأة مثلها كي تسترد كبرياءها، وتمضي مرفوعة القامة..

دفنت رأسَها في صدرها، وهمست:

– شكرًا لكل شيء. عسى الله لا يحرمني منك، ويبقيني إلى جانبك حتى أبرَّ بك إلى آخر لحظة في حياتي..

– بل شكرًا لك أنتِ لأنك معي، عليك أن تتمرّدي على الوجع وكلِّ الظروف التي تجعلك عاجزة، ستفرج يومًا، على قدر صبرك يكونُ الفرج،

أنا معك وليلى ومجد. إنّهما يحبانك كثيرًا، تمسّكي بكلّ مَن أحبّك بصدق، واصرخي في وجه الحزن، وامضي.

تقلّبت حنان فوقَ سريرها كثيرًا، تدفع دماغَها الصغيرة للنوم، تحتاج لغفوةٍ بعمقِ جراحها كي تغوص فيها وتطفو على السطح باقي الأيام بثبات، فارغة الصدر من تلك المشاعر المختلطة. كلامُ سلمى لا يزال صداه في أذنيها.. نعم هي بحاجة إلى قوّة كبيرة برغم كلّ شيء.. قوّة تنبعث من أعمق نقطة في جسدِها، توقظ فيها كلّ الطاقة الإيجابية اللازمة للتقدّم، للمضيّ، ولتنسى..

استيقظت بداخلها فجأة رغبةٌ جامحة للكتابة، كان الوقت متأخرًا والطقس باردًا، غير متناسب للكتابة.. لكنّها لم تستطع دفعها، هذه طريقتها لتواسي نفسها.. لتزيح بعض الضباب المختال أمامها؛ أن تكتب.. يعني بالنسبة لها أن تخرج كمًّا هائلًا من تلك الأوجاع، خشيت إنْ لم تجب هذا النداءَ الآن مؤجّلة إيّاه لوقتٍ آخر أن يخونها بعد ذلك؛ فهذا المارد لا يستيقظ كلّما أرادت، بل هو صلبُ الإرادة ليس لها أن تتحكّم فيه..

أزاحت ثقلَ الغطاء فتسرّب البرد إليها..

جاءت إلى بالها تلك الذكريات القاتلة، يلزمُها إرادة قوية لتزيح غطاءها مثل ما فعلت الآن، سيحتاجها البردُ بعد ذلك لكنها ستتعوّد، ولن تشعر به مع مرور الوقت، ثمّ سيأتي ضوء النهار حاملًا معه الدفء.

جلست على مكتبها تفرك يديها معًا، تطلب بعض الدفء، تمرّر القلم بينهما فتعود له الحياة مقاومًا معها جبروت الصقيع.. ستكتب كلّ شيء، وستدفن الماضي بين طيّات الورق، ولن يعود الحبرُ للقلم مرّة أخرى.. أبدًا..

* قديماً، كنت إذا أوجعني أحدٌ أكتب له أو عنْه، أشكو للورق دائي، أعاتبه بأحرفٍ أتخيّرها جيدًا، أعيد صياغة الأسباب، وأخلق لها الأعذار بنفسي وأنسى.. كنت أمتلك مقدرةً كبيرة على العفو، وفي المقابل لا أجيد فنّ العتاب؛ فأنا التي تعفو بلا عتاب، طالما ظننتها خصلةً جيدة أترفّع بها عن القاع المزدحم، لكنّ بركان الغضب الآن يكاد ينفجر داخلي، أولئك الذين أعطيتهم من نفسي الكثير، الذين ظننتُ أنّ الحبّ خلق لهم لازال طعمُ الحنظل الذي سقوني إيّاه يبصمُ آثاره في حلقي.. وما أمرّ طعمَ الخيبة والخذلان ممّن كانوا بلسمَ الروح ولونَ الفرح، ومَن لهم وبهم نحيا..

– أمّي، سلامًا على روحك الطاهرة وصورتك الجميلة التي تذيقني فنونَ الألم ووخزاتِ الفقد كلّما سقطت ولم أجدك..

– أبي، سقيتني مِن بين يديك يومًا زمزمًا ارتوت به روحي، لا أدري كيف تحوّل مع الزمن إلى سمّ يسري إلى اليوم منّي مجرى الدم!!

– أحمد، الاسم الذي تذوّق لساني حلاوةَ حروفه منذ نعومة أظافري، الحب البريء، وحكاية عمرٍ وردي.. جئتك طفلةً ربيعية الهوى وها أنا اليوم أتخبّط بين فصلين لا ثالث لهما؛ خريف وشتاء..

مِن أين سأبدأ حكايتي..؟ أغوص إلى القاع أنبشُ هناك ذكرياتٍ قديمة، أيام قد تعود وقد لا، مَن يدري!! تسرّب إلى واقعي بعضُ الأمل منذ أن شفيت من كآبتي، ودخلت إلى حياتي سلمى.. سأتمسّك بهذا الأمل كمرساةٍ تعيدني إلى برّ الأمان..

أعودُ إلى الوراء حيث كنت طفلة، أكبر خسارتي أنْ أخرج بقلم التلوين عن المساحة المحدّدة للصورة، أمسك القلم بيدي الصغيرة، ألوّن المساحة المحدّدة، فينزلق القلم ملطخًا الورق على الجوانب.. فأنزعج كثيرًا. ذات مرّة، بعد أن أخطأت الهدف كالعادة أمسكت كلّ الأقلام في قبضةِ يدي، وفي غضب مرّرتهم على كامل الصفحة مُتجاوزة كلّ الحدود.

فإذْ بها تشكّل خطوطًا متداخلة متشابكة جميلة، أخبرتني آنستي في الرّوضة أنّ هذا نوع من الفن.. كان ذلك أوّل درس لي في الحياة.. أنّ تجاوزَ الحدود أحيانًا والتمرد على المألوف قد يكون بدايةَ لوحة جميلة وأنّ بعض الخسارات قد تكون فوزًا لو نظرنا لها بعين أعمق..

وأنا اليوم قرّرت أن أطبّق هذا الدرس فعليًّا..

نعم، لقد تعذبت كثيرًا.. لكني كنت في أحد الأيام سعيدة، واليوم سأتمرّد على كلّ أحزاني وألوّن سقف طموحاتي من جديد بألوانٍ سأختارها أنا..

حكايتي، حكاية طفلة بريئة ككلّ أطفال العالم، ولدت في حضن أبوين أرى الحياة من خلال أعينهما، كنت عندما أفتح ألبومَ صوري في الماضي أرى

الفرحَ في مُحيّا تلك الصبية التي كنت.. مع كلّ صورة ذكرى خاصة.. طعمٌ مميّز.. ورائحة لا تزال عالقة بكلّ مكان منها.

أمّي امرأة من أصولٍ جزائرية، قدِمت مع عائلتها لتعيش في تونس، مِن أسرة ميسورة الحال، ووالدي تونسي من عائلة ثرية..

تزوّج أبي أمّي زواجًا تقليديًّا لَمَا سمعه عن جمالها وأخلاقها، وكانت جدتي مَن اختارتها له رغم الفرق الاجتماعي بينهما إلّا أنه كان من شروطه، امرأةٌ عفيفة لم تعرف قبله رجلًا يستأمنها على بيته..

أمّي لم تكن ترغب بأبي كما علمتُ من خالتي، لم يكن من نوع الرجال الذي يستهويها، لكنّ جدي أجبرها على الزواج منه لثرائه، لم يسعْه أن يصدق أنه سيصاهره عائلةُ أبي.. كان بالنسبة له كحلم.. وأمّي الفتاة البارّة بوالدها لم يكن أمامها سوى أن تقبل راضخة.

أجبرها جدّي على الانقطاع عن دراستها لتتزوّج من أبي. المسكينة.. لم ترَ في حياتها السعادة إلّا حينما ولدتُ أنا.. كما كانت تقول. عاشت فقيرةً منذ صغرها، ورغم ذلك لم يكن الزواج من رجلٍ ثري من بين أحلامها، بل كانت ترغبُ في إكمال دراستها والارتقاء إلى القمّة بنفسها، لكنّ الإحباط وقتل الطموحات قد يكون أحيانًا من أقرب الناس لنا.

تزوّجت أمّي أبي.. لتنتهي حياة الفقر بالنسبة لها، وتبدأ حياةٌ جديدة عنوانها التضحية والصبر.

في طفولتي، عرفت أبي أبًا مثاليًّا.. لكنّي في قرارة نفسي، رغم حبّي الشديد له، كنت أعلم قطعًا أنه لم يكنِ الزوج المثالي..

كان يحبّني كثيرًا..

لكنْ ليس أكثر من شهواته، طالما أغرقني بالهدايا، يسترضيني بها بعد غياباته الطويلة اللا مفهومة.. لكنّ أمّي كانت تفهمها جيدًا، تغيّره المفاجئ بعد وفاة أمّي جعلني أظنّ أنّ كلّ ذلك الحبّ والاهتمام اللذين ملء به حياتي لم تكن سوى خطةٍ ليجعلني إلى صفّه كنقطة ضعف لها، أحسستُ أنني كنت مجرّد دمية في يده يزيدُ بها عذاب أمي.. والطعم الذي يبقيها في شراكه دائمًا..

هذا الكابوس يجعلني كلّما تذكرته أمقتُ نفسي فقط لأني من صلبه..

الحبّ وحلاوةُ التعلق والاهتمامُ والأوقاتُ الجميلة التي جمعتنا يومًا بمَن نحبّ.. تصير القيد الذي يخنقنا حدّ رؤية الموت إذا ما عرفنا أنّ كلّ ذلك كان وهمًا.. كذبة عشتها يومًا اسمها أبي.. لو أنّك فقط تأتي الآن وتخبرني أنّ السعادة والحبّ الذي احتويتني بهما يومًا صادقان.. لو تخبرني فقط.. ربما سأستطيع أنْ أسامحك.

يقال إنّ الفتاة التي تفقد أباها قد فقدت سندَها، وأنت يا أبي طردتني كلّما حاولت أن أستند إليك.. أبعدتني كلّما أردت الاقتراب، وجعلت الفوهةَ التي بيني وبينك تتّسع، تتّسع حتى صار محالًا أن تجتمع في مربع واحدٍ ولو كنا في نفس البيت.

ذاكرةُ الطفلة التي بداخلي تختزن لحظاتٍ أبويةً سامية.. حنانك الأبوي الذي كنت تحيطني به ويجعلني أتعلّق بك بكلّ احتياج الطفلة لوالدها، لحظات مرضي الذي كنت أرى فيها الخوف يحتلّ أركان عينيك.. ضعفي الذي يجعلني أذبلُ كالقطة على كتفك خوفًا من صوت الرياح ليلًا.. ألعابي التي كنت تشاركني بها حتى أغفو من التعب.

الأفلامُ التي كنا نشاهدها حتى وقتٍ متأخر من الليل وننام معًا على الأرض.. نهايات الأسبوع التي تأخذني فيها إلى أحبّ الأماكن لدي، وتشتري كلّ ما اشتهتْ نفسي حتى أنّهم لمّا حدثوني عن الجنة.. قلتُ الجنة أبي. ملامحك التي كنت أقرأ فيها حبَّك وخوفك علي، روحك المرحة التي ظننت أن لم يعرفها سواي.. أيعقل أن تكون كلها سرابًا!!؟

تلك الطفلة أحبّتك يا أبي لدرجة كانت مستعدّة للتضحية بكل شيء مقابل أن ترى نظرةَ الفخر في عينيك بها..

أتذكرُ يومَ كنت في سنتي الأولى في المدرسة وفي نهاية السنة تحصّلت على المرتبة الأولى في قسمي، وتحصّلت على جائزة وتكريمٍ من معلمي، كنت أحلّق يا أبي.. أحلّق وأنال.. أنتظر حضنك بفارغ الصبر وأنْ أزفّ لك البشرى أنت وماما..

كنت أحتضن الجائزةَ بيدي، وفي وجهي ألفُ ابتسامة وأنا أقطع الطريق نحو المنزل إليكما.. كنت أسمع صرخاتٍ قادمةً من المنزل كلّما اقتربت.

وقفت أمام الباب وجلةً، وقلبي يكاد يتوقّف من الخوف حتى سمعت صرخةً انهمر على إثرها الدمعُ من عيني، سقط كلّ ما بيدي، وبدأت أطرق الباب بهستيريا، انقطع الصراخ وفتحت أنت.. لم يكن أبدًا وجهَك الذي عرفت.. ولا أبدًا نظراتك.. كان أمامي رجل لم أعرفه قبل ذلك اليوم الذي كان آخرَ عهد لي مع الهناء والاستقرار.. انتظرت رغم كلّ شيء ورغم الشّرر والغضب البادي في تعابيرك أن تهدأ وتحملني، لكنّك رمقتني بنظرات حادّة، وخرجت مسرعًا.. كاد يغمى عليّ.. سقطت على الأرض، فجاءت أمي مسرعة، أدخلتني وأغلقت الباب..

هالني ما رأيت، الدّم يتسرّب من أنفها، ملابسها ممزّقة، وبعض خصلات شعرها على الأرضية.. تمسّكت بي بقوة.. بكلّ ضعف وقهر.. وكأنّني ملجأها الوحيد في الدنيا.. وهي التي اعتادت الكتمان.. بكتْ على صدري بألمٍ وعجز، كانت أوّل مرّة أرى فيها أمّي في تلك الحالة.. يمكنني الآن أن أتخيل مقدارَ ألمها آنذاك، بكتْ بصوتٍ مرتفع وهي التي عرفتها هادئة رقيقة لا يعلو صوتها أبدًا.. حتى نامت على صدري، وهي تتشبّث بي كغريق يريد النجاة!!

تمنّيت لو أني ما عشتُ لذلك اليوم أبدًا.. لم أستطعْ محوَ ذلك اليوم من مخيلتي، رغم أني قد رأيت بعدها أشدّ منه.. لا أستطيع أن أفهمَ، حدّ اليوم،

كيف استطعت أن تبكي امرأة مثلُها!! إلى أي درجة بلغ بك الكبرُ والقسوة حتى تعذّبها بتلك الطريقة، وهي التي ما تركت أمرًا يسعدك إلّا وفعلته؟!!

لو طلبت منها يومًا أن تشعل أصابعها حتى تنير لك العتمة؛ لفعلت.. ما تركتْ بابًا قد يوصلها لك إلّا وفتحته.. أكاد أجزم أنّه ما من امرأةٍ في الدنيا قد تصبر على زوجها مثلما فعلت..

كنت أظنّ أنّ لأمي أكثرَ من قلب كي تحمل كلّ ذلك الحبّ لجميع الناس وتلك الطاقة اللاعادية على الصبر والتحمل.. لم تكن تستحقّها أبدًا يا أبي..

كان همُّها في هذه الحياة إسعادَنا، كلماتها.. همساتها.. والطيبة المفرطة التي كانت تتحلّى بها؛ جعلتها تستوطن قلوب كلّ مَن عرفها. لم يلجأ لها أحدٌ إلّا وفتحت له بابها، تركت صورةً جميلة في ذاكرة كلّ مَن عرفها، جعلت كلّ مَن يراني يحبّني بيْدَ أن يعرف أنّني ابنتها. لن أنسى يومَ مررتُ مِن حيّنا القديم صدفة كيف نادتني جارتنا، احتضنتني وبكتْ وهمست لي: «سيحميك الله مِن أجلها يا جنان، كوني واثقة».

احتوتها كلّ القلوب يا أبي.. إلّا قلبك.

رأيت طيبتها ضعفًا وجبنًا، وحبَّها لك احتياجًا. كانت في بيتك جوهرةً ثمينة، تركتها وسعيت إلى معادن بلا ثمن.

كيف عميتْ عيناك عنها، بل كيف سمح لك ضميرُك بكسرها؟!!

أمّي.. يا نبضَ قلبي، عسى الله يعوّضك عن كلّ ضرّ مسّك.

عشتِ عظيمة ومتِّ كذلك، مازالت تلك الرائحة الزكيّة التي ملأت أركان الغرفة التي وضع فيها جسدُك الطاهر يومَ وفاتك تملأ رئتي، والسكون الذي زيّن وجهك وأثّر في كلّ مَن رآك يشجي روحي كلّما تذكرته.

* منذ ذلك اليوم، بدأت أعرفُ وجوهًا جديدة لأبي، غيّرت حياتي..

صارت شجاراته مع أمّي متكرّرة، وكل دعائي عندما تبدأ أنْ لا تنتهي بضربها..

عشت حربًا نفسية في تلك الأيام شديدة، أثرت على دراستي وعلاقتي مع زملائي. وظهر على جسدي ممّا زاد عذاب أمي؛ نحولي.. واصفرارُ وجهي.. الشرودُ الدائم في القسم.. والكوابيسُ المزعجة التي تزورني ليلًا..

حتى تعاملُك معي تغيّر فجأة.. صرتُ أخافك كثيرًا، وأتجنّب الاقتراب منك، وزادك ذلك قسوةً على أمّي؛ لظنّك أنها مَن أبعدتني عنك..

إضافةً إلى الضرب، بدأت أسلوبًا جديدًا: الشّتم والإهانة. أبي الذي كنت أرى فيه قدوتي، لم أصدّق أن ذلك الكلام الفاحش الذي يجعلني أضعُ يدي على أذني كي لا أسمعه في الشارع؛ يصدر منك لأمّي، صرتُ أشمئز منك.. وأبكي حتى تحمرّ عيني كلّما سمعتك تُهينها بتلك الطريقة.

سألتها يومًا.. لماذا لا نهرب يا أمّي؟! اتركيه ولنذهب للعيش في منزل جدتي.

رأيت الغضبَ في عينيْها "إنّه والدك يا جنان مهما يكنْ بيني وبينه.. إنه يحبّك، يجب أن نصبر، مجرّد فترة وتمرّ، ليس لديه سوانا يا ابنتي". كنت أعلم أنها تحاول الحفاظَ على أسرتها على قدر ما تستطيع.. تحاول إرضاءَ أبي والتقرّبَ له أكثر؛ فلا يزيده إلّا شدّة ونفورًا..

بدأتُ أتساءل: هل كلّ الآباء هكذا؟ لكنّ الانسجام الذي أراه بين عمّي وزوجته لمّا نزورهم يزيد وجعًا.. بات المنزل لا يُطاق.. منذ أن كان جنّتي وأحبّ بقاع الأرض لدي، صار جحيمًا أطؤه بقدمي..

كنت أعلم أنك لا تنام مع أمي مثل الأزواج العاديّين، هي تنام معي وأنتَ في غرفتكما..

حتى جئت ليلةً وأنت لست في حالتك الطبيعية.. لا التي عرفتك فيها أوّل مرّة، ولا بعد تحولك المفاجئ..

كنتُ مدركة أنك كيفما كنت، لم تكنْ في وعيك؛ فهذه الحالة التي صرتَ تأتي فيها ليلًا ما أن ينقضي الليل حتى تعود لطبيعتك، ممّا لم أشك فيه أنك لم تكنْ في وعيك. كان صعبًا على طفلة السبع سنوات أن تفهمَ كلّ ذلك، حتى كبرت وعرفت أنّها حالة السكر. أشفق على أمّي كثيرًا، تمضي كاملَ النهار في التنظيف والاعتناء بي وبدراستي والتضرّع لله بأن يصلحَ شأنك. كان

أملُها في توبتك كبيرًا، ثمّ تعود أنت ثملًا في آخر الليل لتذيقها أمرّ ما يمكن أن تتذوّقه امرأة من زوجها. كانت تعلم موعد عودتك، أو ربما تشعر به؛ فتأخذني للنوم، أغفو وقد تشبّثت بثوبها عمدًا مني كي أشعر بها لمّا تتركني؛ إذْ أعلم أنه حينها قد عدتَ لتسلّط عليها بعد العنف المادي واللفظي عنفًا من نوع آخر أكثر وحشية..

أظلّ إثرها مستيقظةً طوال الليل حتى تعود، فأتظاهر بالنوم وقد قبضتُ على عبراتي جيدًا بين أهدابي لئلّا تنزل وتفضحني فتزيدها ألمًا..

كنت أشعر بدموعها تبلّل الوسادة التي كنا نتشاركها، وأنا أدرك الآن جيدًا شدّة ذلك الوجع يا أمّي، لا فرق بين ما حدث لي من أولئك الوحوش وما ذقتِه منه.. على الأقل أنا تركت العنانَ لصرخاتي تشقّ السماء وبكيتُ بحجمها، لكنّك كنت تكتمين آهاتك والشهقاتِ التي كانت تتسرّب منك رغمًا عنك.. فتطعنُ صدري كخنجرٍ حادّ.. لم تكوني وحدَك تتألمين، ولقد كنت أشعر بحزنك وأقتسمُه معك دون أن تعلمي.. لكنّني الآن أبكي وحدي يا فقيدتي، ولازالت الندوبُ التي خلّفتها براثنهم تشوّه جسدي.. فألعن أنوثتي كلّما رأيتها، وأمقت ذكورتَهم.

هل يوجد عذابٌ أقسى على الأنثى مِن أن يأخذ منها جسدُها عنوةً بكلّ وحشية.. ثمّ تلقى على الأرض كأنّها لا شيء غير جسد ليس لها حتى الحقّ أو القدرة على الفرار به؟!!

ذات ليلة، كانت القطرة التي أفاضت الكأس والصفعة التي حطّمت كبرياء أمي، وكسرت أسوار التحمّل التي تحول دونَ إخراج غضبها، تأخّرت أنت على العادة فغلبها النوم، فنامت وسائر جسدي متكوّر في حضنها.

لمّا عدتَ دخلت الغرفة خلسةً تتمايل، وتلك الرائحة تنبعث منك فتزيدني قلقًا، استيقظت إثر قيام أمّي وهي تطلب منك الهدوء كي لا تزعج نومي، وهي لا تعلم أنّني ما عدت أعرف طعمَ النوم منذ ذلك اليوم..

بقيت أتقلّب على فراشي، أنتظر عودتها كي نبكي معًا كالعادة، حتى اختطفني النوم من التعب، تحوّل كلّ خوفي إلى كوابيسَ قاتلة أيقظتني هَلعة.. تحسّست مكانها كي أحتمي بحضنها ملجئي الذي لم يخذلني يومًا، فكان خاليًا.. أصابني الهلع فقفزتُ من فراشي بلا شعور، وأسرعت نحو غرفة نومِها وساقاي لا تقويان على حملي..

قارب الليلُ على الانتهاء وبزوغ الفجر الذي بدأت خيوطه تتسلّل عبر النافذة، وقفت أمام باب الغرفة والخوفُ يعتصر قلبي، خفت أنْ أفقدها.. كنت أسمع صرخاتِها من وراء ذلك الباب وتأوّهاتها تشقّ مَسمعي. وبلا تفكير، طرقت البابَ بكلّ قوّة وأنا أناديها وأبكي، لا أدري كمْ من الوقت مرّ حتى فتح أبي وهو ممسكٌ بها من ذراعها، ورمى بها خرج الغرفة، والشررُ يتطاير من عينيْه، وبدأ بالشّتم والسبّ.. وأنا أحول بينهما بجسدي الصغير أحْميها من ضربه..

ولأوّل مرّة منذ ولدت، أتلقّى منه صفعة ألقتني أرضًا، لم أستطعِ التصديق إلّا وأمّي تصرخ وتترجّاه أن يتركني حتى خرج من المنزل وتركنا.

لم تقوَ على السير، فحبت نحوي ووضعتني في حضنِها وجسمُها يرتعد، أمّا أنا فلم أكنْ أنا.. خُيل لي أنّ الكون قد توقّف عن الدوران..

لا أعلم كمْ من الوقت مرّ ونحن على تلك الحال حتى سمعنا آذان الفجر، تركتني على الأريكة لتصلّي وأنا شبهُ غائبة عن الوعي. ومع أول شروق الشمس، أخذت بعض الحاجيات وانطلقنا لمنزل جدتي.

مضى أسبوع أو أكثر.. لا أتذكر، وأنا أتجرّع الحزن واليأس والإحباط. لم أستطعْ تجاوز الصدمة سريعًا، كنت أسير نحو استعادة توازني بصعوبة بالغةٍ، أشتاق لأبي القديم بقدر كرهي وخوفي من الجديد.

أتعلمُ أبي.. في تلك اللحظة التي ضربتني فيها اشتقت لك كثيرًا، لدرجة أردت أن أهربَ منك إليك.. أن أحتمي منك بك.. يا لها مِن مُعادلة صعبة!! كنت ملجئي من كلّ أذى، لم أفهمْ ما الذي حدث! وإلى متى سيستمرّ هذا الوضع؟!

أمّي وجدتي وخالتي أحاطوني بالرعاية اللازمة والعطف، لكنّني كنت أحتاجك كثيرًا، أحتاج أبي القديم أكثرَ بكثير من خوفي من الجديد.

تغيّر سلوكي، حتى صرت أتعمّد الابتعاد عن أمّي، كنت أخاف أن تتحوّل هي الأخرى ممّا جعلني أتصنّع اللامبالاة، تعمّدت الابتعاد عنها قبل أن تبتعد عني مثلما فعلتَ أنت. كنت صغيرة ولم أفهم...

أمّي فقدت الكثير من وزنها، وبدأ ذلك الجَمال ينضب، وبدأت بالعمل كي تتكفّل بمصاريفي، وتوفّر كلّ ما يلزمني، لكنّ نفوري لم يصمدْ أمام حنانها ودفئها، شيء ما يخبرني أنه لو تغيّر كلّ العالم؛ قلبُها لن يخونني مهما حصل.

وخالتي وجدّتي كانتا تبذلان كلّ ما في وسعهما لإسعادي، وأنا أحبهما كثيرًا، ممّا ساعدني على التحسّن حتى خرجتُ من حالة الحزن التي أسرتني.. تساؤلاتي عن والدي بعد تحسّني لم تنتهِ.. وأمي تتهرب دائمًا من الجواب.

علمتُ أنه حتى لم يسأل عنّا، لقد ارتحتُ لهذا الخبر لأنني سأتمكّن من البقاء أكثر في منزل جدتي، والذي كان يمنعنا من زيارته قديمًا لسببٍ أجهله، لكنني علمت أنه أراد أن يبعدَ أمّي عن كلّ مَن يحبّونها كي يعمي عينها أكثر على قسوته، لكنني في قرارة نفسي تألّمت لعدم اكتراثه؛ فهو حتى لم يكلّف نفسَه عناءَ السؤال.

الحيرة من سبب تغيّر أبي مزّقت روحي، ولم أجدْ لها حلًّا ولشفاء فضولي سوى التجسّس على حديث ماما وخالتي ليلًا حتى عرفت الخطبَ الجلل الذي قلب حياتي رأسًا على عقب.

أبي لم يحبّ أمي يومًا، بل كان قلبه معلقًا بامرأة أخرى، تصفها جدتي بالعاهرة دومًا، لم أكن أعلم معنى تلك الكلمة آنذاك، لكني على يقين أنّها- ولا شك- صفة سيئة.

منعه جدي من الزواج منها، وهو تركها لأنه يريد امرأةً شريفة لبيته، لكن لم يقطع علاقتَه بها بعد الزواج، وربّما شعوره بالذنب وخطيئته مقابل طيبة أمي وغفرانها هُما ما جَعلاه يقسو عليها، علمت أيضًا أن سبب تغيّره المفاجئ هو هجرانُها إيّاه وزواجها بأحدِ أقاربها.. فصبّ جلّ غضبه على أمي المسكينة، وحملها وزرَ خيانته لها وخيانة عشيقته له.

ما عشته جعلني أكبرُ بسرعة وأخوض في أمورٍ أكبر من سنّي..

هجرت ألعابي، وابتعدت عن أصدقائي، وعكفتُ على القراءة في سنٍّ مبكّرة جدًّا..

لم تكنِ الكتب التي أقرأها مثلما يقرأها الأطفال في عمري، بل ابتعدت أكثر، وبدأت في قراءة الرّوايات، أردتُ من خلالها فهمَ الواقع، لكنّها كانت ملجئي من واقعي القاسي.

حكاية والدي مع عشيقته هدّت أركاني، وعرفت كمْ أنّ الحياة ظلمت أمّي!! بدأت أتصنّع النسيان والاستقرار كي لا أزيد عذابها.

وهي بدأت عملها في مصنعٍ قريب كي تؤمّن مصاريفي، خاصّة وأنها لا تعلم كمْ سنبقى في منزل جدّتي. تخرج الصباح مبكرًا وتعود في المساء مُنهكة،

كان التعبُ والحزن اللّذان يغطّيان وجهها يؤجّجان النار المتوهّجة في قلبي، كان ثقيلًا عليّ تقبلُ الأمر.. أنْ تكون امرأة غريبة سرقتْ منّي والدي وجعلت منه سكّيرًا. على كلّ حال، قرّرت أن أكافح مثل أمّي، وأن أتخلّص من تلك الكوابيس التي طغتْ على رأسي، وأترك زمامَ الأمور للأيام القادمة، والتي كانت تخبّئ لي في طيّاتها الكثير.

مرّت عطلةُ الصيف ثقيلةً في منزل جدّتي رغم محاولاتهنّ تبديد وحشتي..

كانت أسوأ عطلة صيفيّة مرّت في حياتي.. لم يتّصل أبي ولا اسْتطعنا تقصّي أخباره، أنا أحاول النّسيان وملء الفراغ الذي أطبق على روحي بالقراءة ومساعدة جدّتي في المنزل، لكنّي بكيت كثيرًا يومَ عيدي ميلادي، انتظرت اتّصال والدي، لم يكن ينسى يومَ ميلادي أبدًا، لم أشفَ من شوقي له ولتلك الذكريات.

اقترب موعدُ العودة للدراسة؛ فانشرح صدري بعضَ الشيء. رأيت في العودة المدرسية طوقَ نجاة من وحشتي وخوفي.

انقضى الصّيف سريعًا، لم يترك لي معه في تلك المرّة ما يجعلني أنتظر عودته بفارغ الصّبر ككلّ عام.. لكنّ الخريف هذا العام كان له وقعٌ مُختلف على نفسي.. لم أكنْ أحبّ الخريف والشتاء لكنّ السّكون الرّوحي الذي نزل عليّ في ذلك الفصل لم ينتابني قبلًا.. شعور لا أستطيع وصفَه، حتّى أصوات

الرّعد ولونُ البرق بتّ أرى فيها جمالًا غريبًا. منذ كنت أرتَعب خوفًا منهما، لا أدري هل كان ما رأيته من وحشة وخوف جعلني أرى ما دونَه جَمالًا!! أو أنّ لأرواحنا علاقةً متينة مع الفصول والطّقوس بما فيها من خبايا.

ذات ليلة، اشتدّ فيها هطول المطر، وأصواتُ الأشجار ترتطم في بعضها البعض، ألصقت الطاولة إلى النافذة لأسرحَ بصري كيفما أشاءُ في ظلمة اللّيل الذي تتخلّله بين اللحظة والأخرى خوط البرق؛ فتهتزّ لها روحي، وبدأت في مراجعة دروسي.

سمعت بعضَ الطّرقات على الباب، لم أعرْها اهتمامًا، حسبتها من وقْع المطر، لكنّ قوّتها بدأت في الازدياد.

كان الجميع في المطبخ يعدّون العشاء، فذهبت لأفتحَ الباب، قلت في نفسي إنّها بالتأكيد جارة جدّتي جاءت تطلب بعضَ الحطب لتشعل المدفأة ككلّ ليلة ينزل فيها المطر.

فتحتُ الباب بصعوبة لشدّة الرّياح.. كان الظّلام حالكًا لم أستطعْ تبيّن الجسد الواقف أمامي، والذي بلا شكّ لم يكنْ لامرأة..

بزغ البرق شاقّا كبدَ السّماء، فشهقت شهقة وضعت على أثرها يديّ على فمي، وعدت خطوات إلى الوراء.. لم أعِ ماذا أفعل.. هل أغلق الباب، وأعود لأختبئ في حضن أمّي، وأترجّاها ألّا تفتح، أم أنتظر ردّة فعله؟!! لكنّ أبي ظلّ واقفًا أمام الباب، ملامحه ساكنة، وبصرُه شاخصٌ فيّ.. والمطر يتساقط

من ثيابه، بدأت أرتعدُ من البرد والخوف؛ فأدخلني وأغلق الباب. نزل على ركبتيه واحتضنني بقوّة.. ولأوّل مرّة أرى أبي يبكي.. اعتصرني بين يديه ودموعُه تسيل على كتفي، لم يقل شيئًا، ولا أنا أيضًا..

أحسستُ بخدر يتخلّل روحي، وبدأتِ الجدران تدور بي، ارتجف جسدي كثيرًا لدرجةٍ لم أستطع تحريكه وأغمي عليّ بين يديه..

فتحتُ عيني وأنا على السرير.. كان أبي وأمّي جالسيْن أمامي، أمّي بصرها مطرَق إلى الأرض، وأبي ممسك بكلتا يديها وينظر لها، جدّتي وخالتي لم يكونا في الغرفة، تركت عيني تحتضنُ المشهد الذي رأيته، وانتابني دفءٌ لذيذ.

لأوّل مرّة أرى أبي يمسك يدَ أمّي بذلك الحنوّ.. تمنّيت أنّ كلّ ما صار كان كابوسًا، وأنّ شيئًا لم يكن.. لم أصدر أيّة حركة لئلّا ينتبها لي، وتركت عيني نصفَ مفتوحة تتمتّع بمنظرهما معًا، وبلا شعور.. ارتسمت على وجهي ابتسامةٌ عريضة.. لاحظها أبي فعلم أنّني استفقت، أخذني بين يديه وارتفع بي عاليًا حتّى لامست سقفَ الغرفة، وأمّي في قمّة سعادتها.

نمْنا ليلتها ثلاثتنا في سريرٍ واحد.. وعدَنا أبي أنّ ما حدث لن يتكرّر، وأنّا أجملَ ما حدث له في حياته ولن يتركنا ثانية مهْما حصل.

غرقت في بحرٍ من الغبطة والطمأنينة لا حدّ لعمقه.. تمنيّت أن أظلّ غريقة فيه حتّى لو كانت نهايته موتًا..

عدْنا إلى منزلنا، لتختزن ذاكرتي أيامًا أروع حتّى من التي مضت.. ما زادها روعة الحبّ الذي رأيته ينمو بين والديّ لدرجة أنّي شعرت ببعض الغيرة.. صار يتفنّن في إسعادها، أمّا هي فتورّد خدّاها واكتستْ عيناها لمعةً مميّزة، وزادت جمالًا..

* ما أروع الفرحَ الذي يأتينا على حين غفلة! وما أبشع رحيلَه بعد ما أنسنا به حدّ الإدمان! هكذا قدّر لأيّامي.. فرح متقطّع.. وألم تتخلّله بعض اللّحظات الطيّبة؛ لتزيدني بعدها وجعًا.. قد يتحمّل الإنسان الحزن الدّائم حتّى يعتاده ويصير أمرًا عاديًّا.. لكنّ الفرح المتقطّع الذي تأتي بوادره لينتهي بعدها كلّ شيء، ثمّ يختفي مع الأيام ليأتي الأمر.. لا يحتمل صدقًا.. لا يحتمل.

بعدُنا على أبي جعله يدرك أهمّيتنا في حياته وخاصّة أهميّة أمّي، التي تحمّلت كلّ حالاته بلا شكوى وصبرت حدّ الاختناق.. يعلم أنّه لن يجدَ مثلها لكنّه كان يكابر حتّى فقدها؛ فانهار صموده وكبرياؤه وعاد يطلب وصلَها وعفوَها، وكعادته وجدها تتقبّل غفرانَه بصدر رحْب، أو لعّل الخنجر الذي طعنته به عشيقتُه جعله يستفيق لوجود ملاكٍ إلى جانبه.

عشتُ في كنفهما خمسَ سنوات كأروع ما يكون، زيّنت أيامي فيها بالمودّة والحبّ والرّفاء.. لكنّ حياتي كانت عبارةً عن هدوء.. ثمّ عاصفة.. فهدوء.. فعاصفة أشدّ من الأخرى.

تغيّر مزاجُ أبي مرّة أخرى، لكن ليس كذلك المرّة فقط ابتعد عنّا قليلًا.. كثر توتّره وشروده.. بدأت تنتابه نوباتُ صداع حادّة.

أصبح يعود متأخّرًا، ويقضي كاملَ وقته في مكتبه، حتّى مظهره أهمله، وهذا ليس من عاداته أبدًا..

سمعته ذاتَ ليلة صدفة إثْر مروري جانبَ غرفة نومه؛ يعتذر لأمّي، ويعدها أنّه سيصلح كلّ شيء، وأنّ خطأه هذه المرّة من الماضي، لكن شاءت الأقدار أن يسدّده الآن.

كان يطمئنها أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، وأنّه يحتاج منها المساندة والثقة.. في مساء الغد، جمعت أمّي أدباشنا، وأخبرتني أنّنا سنذهب لتمْضية بعض الأيام في منزل عمّي في السّاحل. كان قرارًا غريبًا، فنحن لا نذهب لزيارة عمّي سوى في المناسبات والعطل، ولأنّي تعوّدت مفاجآت الأقدار أجبت بالموافقة بلا تساؤلات.

يعيش عمّي وزوجته وأبناؤه الثلاثة في منزلٍ متكوّن من ثلاثِ طبقات في مدينة سوسة قريبًا من البحر، مكانُه يشرح الصّدر، وقد صُمّم بطريقة أكثر من رائعة.

عمّي سامر الأخ الأكبر والوحيد لأبي، طبيب أسنان ناجح، وله شهرة واسعة.. وزوجته دكتورة جامعيّة..

طوال الطريق وأنا أفكّر في السّبب الذي جعلنا نذهب الآن، واضطربت كثيرًا لمّا رأيت كميّة الأدباش التي وضعَها أبي في السيّارة لنا.. على ما بدا أنّنا سنمضي وقتًا طويلًا هناك.

لمّا وصلنا لم نجد أحدًا في المنزل.. الجميع في شغله، كان الحارس ينتظرنا، وأعطانا مفتاح الطابق الأرضي الذي سنقطنُ فيه، والذي جهّز لنا..

كنت أسير بلا كلام أو تساؤلات، أمسك طرفَ ثوب أمّي.. لمّا أتمّوا وضع الأدباش طلبت منّي أمّي الجلوس للتحدث، بينما أخبرني أبي أنّه ذاهبٌ لإتمام تسجيلي بمدرسة إعداديّة قريبة من هنا.. كلّ هذا وأنا في وجوم وأحلّق وسط متاهاتٍ من الحيرة والشّكوك.

أخبرتني أمّي أنّ أبي استدان بعض الأموال من الشركة التي يعمل فيها، وعليه الآن أن يدفعها؛ لذا سيذهب للعمل في الخارج حتّى يستطيع جمعَ المال، ثمّ نعود جميعًا للمنزل.

كانت هذه أوّل مرّة تكذب فيها أمّي، ولأنّها لم تعتدِ الكذب كانت كلّ ملامحها تخونُها.. الحقيقة موجعة أحيانًا، ويا ليتني صدّقت أو حاولت تصديق أمّي ولم أكتشف الحقيقة بنفسي.. كانت صدمةً قويّة أنْ أعرف أنّ أبي سارق.. نعم سارق.. كلمة كان وقعها سيّئًا؛ ففي الفترة التي كان فيها مع تلك المرأة سرق أموالًا من الشركة وأنفقها عليها.

لمّا كان يتركنا متحجّجًا بالعمل كان معها.. سافر معها حتّى إلى خارج البلد. وفي الأخير، تركته..

عندما فُضح أمرُه طُرد واضطرّ لرهن منزلنا لتسديد الدّيون، واستطاع إيجاد عقدِ عمل في فرنسا؛ فذهب وبدأ يرسل لنا النقود من هناك.. كان المكان الوحيد الذي يأمن فيه علينا منزلَ عمّي؛ لذا تركنا هناك وهو يعلم أنّ عمّي سيحافظ على الأمانة.. عاملنا الجميع بطيبة فائقة، لكنّ أمّي كانت تتظاهر بالسعادة.

كان صعبًا على نفسها الأبيّة أن تتقبّل هذا المعروف من عمّي الذي ترك لنا منزله، وتشعر بالخجل الشديد من فعل أبي..

أمّا أنا فحالي كان أسوأ منها.. بقيت أيّاما لا أكلّم أمّي.. حرقة أليمة بقلبي؛ لأنّهم لم يخبروني الحقيقة، ولم يتركوا لي فرصة لتوديع المنزل الذي قضيت فيه طفولتي وأيّامًا جميلة من حياتي.

لا أعلم لماذا عند الوداع نودّع النّاس، ولا نودّع الأماكن، وهي التي جمعتنا بهم، وآوتنا، ولنا مع كلّ مكان ذكرى..

وددتُ لو أحتضن جدران غرفتي، أن ألتقط صورًا في كلّ أركانه، أنْ أشتمّ زهور حديقتي لآخر مرّة، أن أودّعه تاركةً فيه جزءًا كبيرًا من روحي؛ أوّل ضحكة.. أوّل خطوة... أوّل نجاح... أوّل دمعة... أوّل حلم.. وأوّل عثرة؛ كلّها كانت هناك، وستبقى بين تفاصيله.. حتّى الجدران لي معها حكايات وأسرار.

تركت طفولتي في منزلنا في العاصمة لأبدأ هنا مرحلةً جديدة من حياتي ومغامرة أخرى..

لعمّي ثلاثة أولاد؛ أحمد الذي يكبرني بخمس سنين، ثمّ مجد وليلى توأم يكبراني بعام واحد.. كنت الصّغرى بينهم، فكان اهتمامُ الجميع معلّقًا بي.. منذ صغري كثيرًا ما كنّا نمضي العطَل الصيفيّة معهم نحتضن معًا سعادة الطفولة وحلاوتها بكلّ ما فيها من مرح وشقاوة.

وقتَ انتهاء العطلة، نتعاهد على أنّ الصّيف القادم سيكون الأجمل، وننتظره جميعًا على أحرّ من الجمر.

ولأنّ أحمد كبيرُنا كان له مكانةٌ خاصّة في قلوبنا الثلاثة؛ جمالُ روحه وطبعُه أسَرَاني، تعلّقت به كثيرًا واستوطن مكانةً خاصّة في قلبي.. هو الذي كان يدلّلنا ويحاول قدر الإمكان إدخال السّعادة لقلوبنا، يعشق شقاوتنا وشغبَنا، ويهتمّ بنا قدرَ الإمكان.. كانت لي الحظوةُ عنده دائمًا، كان طفلي الكبير ولا يزال...

طفلي الذي أتمنّى الآن لو يثكله قلبي علّني أجد للرّاحة سبيلًا...

الأعوام الثّلاث الأخيرة لم نلتقِ فيها، ربّما لأنّ ظروف والدي الماديّة بدأت في التراجع، ولم نستطع السّفر، ولمّا رأيتهم أخيرًا سررتُ كثيرًا.

ما أجملَ أن ترى أصدقاءَ الطفولة بعد غياب، وتجد مكانتك في قلوبهم لم تتغيّر.. مجد وليلى فرحا كثيرًا برؤيتي، لو كنت في حالٍ غير تلك؛ لكان

اللّقاء أجمل، لكنّ الترحاب الذي لقيتُه منهما بدّد حزني وخاصّة لّما علموا أنّني سأعيش معهم.

لكنّي افتقدت أحمد بينهم، ولم أتجرّأ على السؤال عنه حتّى رأيته صدفة لّما كنت في حديقة المنزل أترشف قهوتي وأنا منسجمة مع كتابي.. رفعت بصري فجأة لأراه قادمًا نحوي.. لم أتعرّف عليه أوّل مرّة؛ تغيّر كثيرًا.. إحساسٌ غريب لم أعهده في نفسي، تملّك كياني أوّل ما رأيته، كانت أوّل دقّة قلب..

تعوّدت على الجري نحوه، والتعلّق برقبته كلّما أتيتُ فيحملني عاليًا.. لكنّ هذه المرّة تسمّرت في مكاني.. اضطربت كثيرًا، وتسارعت دقّات قلبي، ألقى التحيّة وسأل عن أحوالي.. تورّدت وجنتاي خجلًا وأنا أحدّثه حتّى لاحظ ارتباكي، ثمّ اعتذر للذهاب للمعهد، وبصري يتبعه رغمًا عنّي، حتّى توارى وأنا غارقة في حيرتي، وهذه الأحاسيس التي لا عهد لي بها.

توطّدت علاقتي بمجد وليلى كثيرًا ليصيرَا أقرب أصدقائي ورفيقا دربي، حتّى الآن مازالا إلى جانبي.. هُما جزءٌ كبير من حياتي، ولهما فضل خاصّ عليّ.. كلّما أبعدتنا الأيّام واجتمعنا مرّة أخرى أرى في عينيهما مودّة وحبًّا صادقًا لي.. عسى الأيّام القادمة لا تفرّقنا، وتلمّ شملنا تلك المشاعر الصّادقة.

بدأت دراستي في الإعدادية الجديدة، ولم أجد صعوبة في التأقلم مع زملائي، ولا حتى في التميّز رغم أنّي انتقلت في نصف العام الدراسي..

كلّ مَن يراني يقول إنّ فيّ شيئًا خاصًّا يحبّبني للقلوب، وإنّ نظراتي بريئة وروحي طيّبة.. أفرح كثيرًا لهذا الإطراء، وكلّي أمل في أن يلاحظ أحمد هذا. بدأت أفكّر فيه كثيرًا منذ ذلك اليوم، وتلك النبضات الغريبة لازالت ترافقني كلّما رأيته حتّى صرت أتجنّبه وأفتقده في الآن نفسه.

فكّرت أنْ أخبر أمّي عن هذه المشاعر الغريبة، لكنّي خشيت أن تضحكَ منّي؛ فقرّرت أن أكتمها في نفسي حتّى أنتهي منها، لكنّها أبتْ إلّا أن تنتهي هي منّي وتستقرّ في قلبي وعقلي.

كنت أقضي كاملَ اليوم مع مجد وليلى لا تفرّقنا سوى ساعات النوم والدراسة، وأحيانًا ينامان معي في غرفتي بعد ساعات السّمر الطويلة.. وكلّ نهاية أسبوع لنا موعدٌ مع المغامرات وأروع اللّحظات.

ما أجملَ تلك الأيام!! وعمر المراهقة بكلّ ما فيه من جنون وحبّ الحياة والاكتشاف.. ليت تلك الأيّام تعودُ، وليتني أشفى من جراحي وتعود العجوز التي في داخلي لطفولتها الغضّة.

«وين أيّامنا وين، وين قضيناها راحت في غمضة عين، آه يا محلا ذكراها»..

لي وهذه الأنشودة حكاية.. تذكّرني بمجد وليلى وعهد الصّداقة الذي جمعنا.. الحياة التي ظلمتني أبعدتني عنهما ورمتني بين الأشواك.

صديقا عمري، أعلم كمْ حاولتما تخليصي من تلك الأشواك حتّى دميت يداكما، لكنّي استسلمت، وها أنا اليوم أعلنُ تمرّدي وأكسر قيودي، وسأحارب إلى آخر نبض في عروقي.

تناسيت وقتَها الصّدمة التي خلّفت أثرها على نفسي من والدي، وانسجمت في حياتي الجديدة، وكلّي أمل في المستقبل.

بدأت علامات الأنوثة تظهر على جسدي وتجلّى جمالي.. كنت الصبيّة النّاعمة جميلة الخَلق والخُلق. نظرت الحياة بتفاؤل، ورسمت بألوان الأمل طموحاتي.

حتّى أمّي رأت فيّ الشّعلة التي ستنير حياتها، مضيت صلبةَ العزيمة.. قويّة الإرادة.. نقيّة الرّوح.. الأمرُ الوحيد الذي كان يقلقني؛ مشاعري نحو أحمد، والتي كانت تكبر في داخلي مع الأيّام مهما حاولت إخمادها.. لكنّي ما استطعت الاقتراب منه ما حاولت.. رضيت أن أكتمَ حبّه داخلي واجعله سرًّا بيني وبين نفسي فقط.

كنت أتخيّله في كلّ رواية أقرأها، في كلّ فيلم أعايشه، في كلّ حرف أنسجه..

حفظت مواعيده، أراقب دخوله وخروجه كلّ يوم، أتصفّح حسابه على الإنترنت كلّ ساعة..

لم تكن أحاديثي معه تتجاوز التّحية وبعض الكلام الرّوتيني والجلسات العائليّة، وأحيانًا يرافقني ومجد وليلى للتنزّه.. فضلًا عن أنه سيجتاز مناظرة البكالوريا حينها، فكان يجتهد في الدراسة حتى يحصّل مجموعًا يمكّنه من الالتحاق بكليّة الهندسة كما كان يتمنّى.. مؤلمة أحيانًا المراقبة عن بعد، لكنّها كانت تزيدني تعلّقًا.. ألمٌ طفيف لكنّه يحرّك كلّ أوصالي.. يهزّني إلى عوالم أخرى، ويحلّق بي عاليًا، ويلقي بي أرضًا أحيانًا..

صوته، ضحكاته، مرحه، وخفّة الدّم التي كان يتحلّى بها، ملامحه الفاتنة، ورجولته الطّاغية؛ امتلأت بها كلّ أركاني.. صرت أتمنّاه بكلّ مشاعري.. وما عدت أرى في الكون غيره.. حتّى ما بتّ أراني مع سواه.. وأشتعل غيرة كلّما فكّرت أنْ قد تكون في قلبه أنثى ما..

كانت الغيرةُ من المشاعر الجديدة التي عرفتها به، والتي تقلق مضجعي وتربك عقلي..

ليتك فقط تعلم كمْ أحببتك يا أحمد! والصّورة الجميلة التي رسمتها لك بكلّ عيوبك التي بتّ أراها محاسنا.. حسبت أنْ لا امرأة على وجه الأرض عرفت الحبّ مثلي.. وما أخلصت امرأة لرجل مثلي.. ليتك تدرك كم كنت كبيرًا في عيني وما كنت مستعدّة لفعله من أجلك.

انتهى العام الدراسي أروعَ ممّا تخيّلته، وكنّا على موعد مع نتيجة بكالوريا أحمد.. كانت فرصة جعلتني أتقرّب منه.. رغم أنّي لم أقصدْ ذلك.. حفّه

الجميعُ باهتمام خاصّ.. أتذكّر شدّة قلقه، وارتباكه، حتّى قلقه كان أنيقًا مثله.

تجرّأت على الحديث معه وإعطائه بعض الشحنات الإيجابية.. لأوّل مرّة لم يتعثّر لساني وأنا أكلّمه، بل تحدّثت بسلاسة ولطفٍ بالغ، حتّى أنّي تعجّبت من نفسي وقدرتي على المواساة والتشجيع التي اكتشفتها معه.

يوم إعلان النتيجة، فاجأني باختياري من بين الجميع كي أفتحَ رسالة النتيجة بنفسي، باغتني بطلبه الذي لم أفهم معناه أو سببه لكنّي لا أنْكر أنّ الفؤاد اهتزّ له، ورقصت له جوانحي، رغم الخوف الذي سيطر عليّ، وكأنّي أنا مَن أنتظر نتيجتي لا هو.

لكنّ الغبطة نفذتْ إلى أغوار قلبي لمّا ظهرت النتيجة، سقط الهاتف من بين يدي وأنا اقفز وأصيح وأبارك نجاحه.. ما كان منه إلاّ أن ضمّني إليه وسطَ هتاف الجميع وصيحاتهم.. حرّك كامن إحساسي وسكنت بين أحضانه وشككتُ أنّه قد سمع نبضاتِ قلبي الذي حسبته سيخرج من صدري.. كان شعورًا رائعًا بأتمّ معنى الكلمة، أيقظ سكون المشاعر وما طافَ في نفسي من رغبات.. كم أحتاج ذلك العِناق الآن يا أحمد.. فقط لو تأتي وتعانقني مثل ذلك اليوم وترحل؛ لأتمسك بك أملًا وترياقًا لأوجاعي.

بقيت رائحةُ عطرك في قميصي الذي مازلت أحتفظ به منذ ذلك اليوم.. بتّ ليلتها أحضنُه وأملأ رئتيّ من رائحته، عطرُك الذي علقت به والذي

غسلته دموعي.. لم أفهمْ مغزى تلك العبرات ليلتها.. ربّما تأكّدت أنّني أصبحت أتنفّسك وتورّطت بجبّك حدّ الوجع..

مرّ الصيف رائعًا، انضمَمت لنا بعدما كان يشغلك عنّا هدفك في النّجاح، وصرنا نفرح نحن الأربعة، ما تركنا مكانًا إلّا وجلناه ذلك العام.. تركنا أثرَنا في كلّ مكان.. أضفى وجودك معنا تأثيرًا غير عاديّ، زدت قراءة لأغوار نفسك وطبعك السّاحر، وزاد التعلّق وآلامه.

أحببتُك حتّى صارت عيوني تفضحني، وبات صعبًا مواراة شعوري المتدفّق نحوك..

لّما حان وقت اختيار التوجيه الجامعي، اخترتني أنا مرّة أخرى، أمليت عليّ الأماكن التي تريد أن تدرس فيها، ووضعت مدينتك في الخيار الثالث؛ ولأن معدّلك كان عاليًا، كنت متأكدًا أنهم سيعطونك الخيار الأوّل في العاصمة.. فكرة الفراق أنهكتني، وأنا التي أكحّل عيني بك صباحًا ومساءً.. بعد أن قرّرت أن أظهر أمامك وأحارب للفوز بقلبك، ستتركني وتذهب!!

أخذ الوجدُ منّي نصيبًا حتى قبل ذهابك يا أحمد، وأنت حتى اليوم لا تعلم أنّني حفظت كلمة السرّ، ودخلت للموقع خلسةً وغيّرت الأماكن.. ووضعت مدرسة المهندسين في سوسة كأوّل خيار.

استغربتُ للأمر في البادئ، وقرّرت تغْيير التّوجيه، وهنا كان دوري في اللقاء المحاضرات في الرّضاء بالقضاء والقدر، حتّى ثنيتُك عن الأمر، بقيت

معنا وزاد إدماني بك إلى حدّ لا يمكنك تصوّره.. كنت صغيرة لكنّ حبّي لك لم يكن حبّ مراهقة.. كان أصدق وأطهر وأعمق وأعلق بنفسي من أيّ شعور آخر.

عدْنا للدّراسة جميعًا، وبدأت أحاولُ الاقتراب قدرَ الاستطاعة.. بدأت أهتمّ بمظهري كثيرًا، وأحاول جذبَ نظره.. أغتنم كلّ فرصة أجدها للحديث معه، حتى أنني أتظاهر بعدم فهم بعض الدروس كي يشرحها لي.

كما اكتشفت أنّه يحبّ الكتب مثلي، صرنا نتبادل الكتب، ونذهب معًا إلى المكتبة..

كان لطيفًا معي كثيرًا، غالبًا ما يضحكني بخفّة دمه البالغة.. يبهرني بثقافته والمواضيع التي يفتحها معي للنّقاش، يحدّثني عن طموحاته ورغباته، والتي أخبرني أنّه لم يتشاركها مع أحد قبلي.

لمّا رأيته ذاتَ مرّة مع رفيقته الجديدة التي أحضرها للبيت، قصد أن يعرّفها إلى عائلته؛ انْهَرْت.. اختنقت.. تملّكني اليأس.. واحتلّتني الغيرة.. وتفجّرت داخلي آلافُ البراكين.. احترقت لوعة وحسرة، خشيت أنّي قد أخسره للأبد، أنْ أخسر أجمل شيء في حياتي.

بقيت ثلاثة أيّام لا أخرج من البيت، وأرفض مقابلة أيّ شخص حتّى أمّي.. امتنعتُ عن الأكل وبكيت حتى انخفض ضغطي كثيرًا، وأغمي عليّ.. كان هو مَن أخذني للمستشفى بسيارته مع عمّي وأمّي، وبقي إلى جانبي حتّى تعافيت، كان دائي ودوائي في الآن نفسه.

لوعةُ الغيرة أفقدتني عقلي، حتّى قرّرت أن أعترفَ له. وفي لحظة ضعف وقهر الفقد، كتبت له رسالة أخبرته بكلّ شيء، بحبّي الكبير له، وغيرتي عليه، والألم الذي يسكنني، وما مرّ بي من صدمات، والذي جعلني أكرهُ الحياة حتى أحببته.

انتظرتُ جوابه الذي تأخّر كثيرًا ممّا جعلني أعضّ أصابعي ندمًا..

مرّت بي الدقائق دهورًا، أتجرّع فيها قسوة الانتظار.. انتظار جواب قد يقتلني أو يحييني، لكنّه قرأه ولم يردّ! ممّا زاد عذابي.

بدأت سكاكينُ التّقريع تطعن جسدي.. وأخفيتُ وجهي عنه، حتى اعترضني يومًا على غير موعده.. رمقني بنظرةٍ كادت توقف الدّماء في عروقي، ثمّ تجاهلني دونَ أن يلقي حقّ التحيّة.

عدتُ إلى غرفتي شبْه ميّتة، يأكلني النّدم والخجل والتّعب من التفكير.. كانت الدّموع تنزل منّي ولا قدرة لي على إمساكها.

أضاءت شاشةُ هاتفي معلنةً عن رسالة كانت منه.

«جنان، أنتِ أختي، ولن تكوني غير هذا.. سأتجاوز الأمر كأنه لم يكن، أرجو أن تتجاوزيه أنت أيضًا».

تصاعدت الدّماء إلى رأسي، وشعرت أنّ كبريائي قد تفتّت.. ألقيت بالهاتف على الأرض، وتعالى صوتي بالبكاء حتى جاءت أمّي، هالها منظري،

فأخذتني إلى حضنها تواسيني.. أخبرتها بالأمر وأنا أنتحبُ حتى أبكيتها معي.

منذ ذلك اليوم، حاولت أن أنساه وأعود لحياتي العاديّة، تجنّبت الالتقاء به إذ كنت أحفظ مواعيد دخوله وخروجه..

حتى جاء ذات يوم باكرًا من الجامعة ومعه صديقه من الجامعة.. كنت في حديقة المنزل مع ليلى آنذاك.. قدّم لنا صديقه وجلسا معنا.. تجنّبت النّظر له وأنا أحاول إخفاء ارتباكي بالحديث مع رفيقه طوالَ الوقت حتّى استغربت ليلى ذلك وهي تعلم طبيعتي المحافظة مع الغرباء.

أصرّ رفيقه على أن نخرج في الغد جميعًا، حاولت الاعتذار.. لكنّ ليلى ألحّت عليّ فوافقت على مضَض.

في الغد، كان الجميع ينتظرني أمام المنزل؛ أحمد، ورفيقه، ومجد، وليلى. تأخّرت عليهم إذ كنت منشغلة بوضع الزّينة.. تعمّدت أن أظهرَ بكامل أناقتي حتّى أبْهر الجميع عند رؤيتي.

طوالَ الطّريق وأنا أتصنّع السّعادة، أضحك بأعلى صوتي.. لم أرغب في إظهار حزني وانكساري أمام أحمد، كنت أتحدّث مع الجميع إلّا هو.. لم أكن حتّى أنظر في وجهه.

لمّا وصلنا إلى مدينة الملاهي، طلب منّي أحمد التحدّث على انفراد.. ذهبت معه حتى توارينا عن أنظارهم، وأنا أرفع رأسي عاليًا وألاعبُ شعري مُخفية

ارتعاش أصابعي؛ جذبني إليه فجأة بقوّة حتّى اقتربت منه كثيرًا، رأيت الغضب يحتلّ عينيْه.. تسارعت دقّات قلبي وارتعدت، صاح بي: «جنان، هذه آخر مرّة تَضعين فيها مساحيق التجميل، وتخرجين من البيت في هذا الثوب القصير.. مفهوم!؟».

أغمضت عيني وأنا أشتمّ عطره.. لّما أحسست أنّني تصرفت بحمق؛ تراجعت للوراء، وصحت فيه «هذا ليس من شأنك»، وعدت أدراجي لألتحق بالبقيّة.

لم أشأ أنْ أفكّر فيه في تلك الليلة، بل شغلت نفسي بمراجعة دروسي، ولم أفهم تصرّفه ذلك، واستبعدت فكرة أن يكون من باب الغيرة، بل رأيت أنّه يحاول استفزازي، فأصررت أن أكابر ولا أسمح له بإهانتي مهما حصل.

مرّت ثلاثة أشهر أو أربعة وأنا أتجاهله، وقلبي من الدّاخل يتمزّق اشتياقًا له، أصبح رفيقه يأتي كثيرًا مع أحمد للمنزل، وصرنا أصدقاء.. كنت أتحدّث معه بطلاقة ورحابةِ صدر أمام أحمد، وأتجنّبه لّما يفتح معي مجالًا للحوار على الإنترنت، لم يطمئنّ قلبي له البتّة.

ذات يوم، وأنا أخرج من المعهد، رأيته أمامي.. ظننت أنّه ينتظر أحدَ أقاربه، لكنّه فاجأني بقوله أنّه ينتظرني.

طلب منّي الذهابَ معه إلى أحد المطاعم القريبة، لكنّي رفضت مُستعجلة إيّاه أن يخبرني بما يريد كي أعود للمنزل.. وبلا مقدّمات، أمسك بيدي

وأخبرني أنّه يريدني.. لم أدرِ ماذا أفعل وأيّة جرأة يتحلّى بها.. نظراته تلتهمني، حاولت الفرار لكنّه قبضَ على يدي بقوّة.. بدأت أترجّاه أن يتركني لكنّه رفض وألحّ عليّ أن أذهب معه. ما زاد خوفي أنّ المكان بدأ بالخلوّ.. وبقينا وحدنا.. هممتُ بالصراخ حتّى رأيت الدّهشة على وجهه، وترك يدي مضطربًا، التفتّ ورائي لأرى أحمد.

بلا وعي، جريت نحوه.. بدأ هو يحاول تبرير فعلتِه، لكنّ أحمد وجّه له صفعةً ألقته أرضًا، صرخت على إثرها وأنا أمسك يدَه أترجّاه أن نذهب..

ثمّ أمسك بذراعي بقوّة غير مبالٍ باضطرابي، وأدخلني للسيّارة، وأغلق الباب ورائي، وعاد له، أمسكه من قميصه، لم أعِ ما سمعته، كاد قلبي يخترق حجبَ صدري "لا تحاول حتّى أن تفكر فيها، إنّها لي".

ارتخيت بكامل جسدي إلى الوراء على مقعد السّيارة، ووجّهت بصري إلى النافذة، أحلّق في خيالي بعيدًا.. طوالَ الطريق، لم يقل شيئًا ولم ينظر حتّى لي.. لمّا نزلنا وجّه كامل اللّوم لي على ثقتي المطلقة في النّاس، وعفويّتي التي وصفَها بالسذاجة، ثمّ أوصاني أنْ لا أخبر أمّي بالأمر كي لا أفزعها، كلّ هذا وأنا أغوص في خليتي العسلي الذائبتان في مقلتيه.. وأتمنّى أن يكون ما سمعته صحيحًا، لا من نسج خيالي.

ما حدث يومها زادَه كبرًا في عيني.. غرقت في عينيْه أكثر فأكثر.. لم أتحدّث معه بعد ذلك، بل أحاول الهروب.. كلّما رأيته.. أنكّس رأسي وأمرّ.

كنت خجلة جدًّا ممّا صار.. من الموقف الذي وضعته فيه، ومن كلامه لرفيقه الذي زلزل وجداني، أمّا هو فقد تغيّرت نظراته لي.. صار يطيل التحديقَ في عيني حتّى يربكني، يترقّب كلّ تفاصيلي، ويحاول فتحَ حوارات مطوّلة معي كلّما اجتمعت العائلة، ولا مجال لأنْ أفرّ منه.

وبدأ أسلوبًا جديدًا معي، يتمادى في المزاح معي أثناء اجتماعنا، ويحاول إحراجي ويضعني في مواقف مثيرة للضحك.. مداعباته أحيانًا أستلطفها وأضحك، وأحيانًا تصير تستفزني حتى غضبت ذاتَ مرّة وغادرت المكان.

في اليوم الموالي، أحضر لي هديّة اعتذار، كانت أجمل هديّة تلقّيتها في حياتي، من أروع إنسان عرفته أحضر لي قطّا صغيرًا فرحت به كالطفلة، أخذته بين يدي وأنا أجول به الحديقة، وأحمد يلاحقني بنظراته ضاحكًا.

سألني.. ماذا سأسمّيه، وضحك كثيرًا لّما أجبته بعفويّة الأطفال أنّي سأطلق عليه اسمك.. لا أدري لمَ فكّرت فيه فورًا، وأعلنتها بفرح غامر.

أمضينا كاملَ تلك الليلة نتحدّث بالرسائل الهاتفية حتى الصباح، كانت أوّل ليلة شاكسني كثيرًا، وأظهرت ودًّا كبيرًا لي.. كنت معك كيمامةٍ صغيرة أجرّب الطّيران لأوّل مرّة..

حدّثت أمّي عنك، وعن كلّ ما جرى بيننا بالتفصيل، فتحت لي قلبَها وأصغت لي بحنان، لكنّها لم تكن سعيدةً يا أحمد لا أعلم لمَ!! ربّما هو قلب الأمّ.. تظاهرت بالسّعادة وأوصتني كثيرًا.

كان من بين وصاياها ألّا أتمادى في هذه العلاقة التي قد تكون مجرّد إعجاب، ثمّ ينطفئ؛ فأظلّ أسيرة لحبّ من طرفٍ واحد، وأظنّ هذا ما حصل.

أخافني كثيرًا كلامُ أمّي يا أحمد، خفت أن تكون مشاعرك نحوي مجرّد إعجاب، أنت حتّى لم تعترفْ لي بشيء، وأن أخسرك وأخسر كبريائي بعد كلّ هذه المشاعر التي سجَنتني فيها، أو أنّك أردت أن تبقيني أسيرة هواك إرضاءً لكبريائك وأنانيتك.

حاولت الابتعاد وقتلَ هذه المشاعر، حسمتُ أمري وبدأت أتجنّبك حتّى أثار الأمرُ قلقك، أو خدش أنانيتك فسألتني عن سبب تغيّري المفاجئ.. أخبرتك أنّي لم أعدْ أريدك، وأنّ حبّي لك لم يكن سوى مجرّد أوهام مراهقة، ومرّت ولن تعود.

تغيّر لونُ عينيك، واحمرّ وجهك غضبًا، وتركتني بلا أيّ جواب..

في الثالثة صباحًا، كنت على موعدٍ من رسالة منك غيّرت حياتي، وشيّعت قلبي إلى مثواه الأخير، وكفّنته بحبّك.. لا زلت أذكر تلك الكلمات كما لو أنّها كانت بالأمس:

«جنان، لا أعلم لمَ أنتِ بالذات، وما الذي حصل، ولمَ الآن!!؟ لكنّ ما أعلمه أنّني أحبّك، لأوّل مرّة في حياتي أقع في هذا الفخّ.. ما عاد بإمكاني

الكتمان أكثر.. سرقتِ قلبي أوّل مرّة رأيتك فيها لمّا جئت. جنان، لقد عرفت الكثير من الفتيات، وأعترف أنّي لم أحبّ إحداهنّ يومًا، ولم أكنْ وفيّا لغير شهواتي، وأنتِ ابنة عمّي وضيفتي.. خِفتُ عليك منّي، وعلى نقائك الذي لم أرَه في فتاة، فحاولت تجاهل الأمر. كنتِ طفلتي التي أحملها بين ذراعيّ، وأنت اليوم الأنثى التي سقط كبريائي صريعًا أمام طغيان أنوثتها.. حبّك صار واضحًا أمامي لدرجة ما عدتُ أرى غيره.. شيء ما فيك لا أفهمه قلَبَ موازين حياتي وقيّدني بك، فصرت الرّجل الذي أحبّ طفلته. جنان، أنتِ لي ولن تكوني لغيري.. سأطلبك من عمّي لمّا يأتي.. جاء بك القدر إلى بيتي، وستصيرين أميرته..».

فركتُ عيني مرّات ومرّات، أتثبّت من الكلمات.. غسلت وجهي.. وفتحت النافذة.. انتابتني رغبةٌ كبيرة في أنْ أصرخ حتى أوقظ كلّ العالم، خرجت للحديقة في ذلك الوقت المتأخّر.. جريت في الممرّ كالمجنونة حتى تعبتُ فاستلقيت على العشب، ونظري معلّق في السّماء. كان القمر مكتملًا كأنّه يزيّن تلك اللّيلة خصّيصًا لي.. نظرت له وأخبرته أن قمري أجمل، ثمّ نمتُ حتى أيقظني أذان الفجر، فأسرعت للدخول قبل أن تستيقظ أمّي ولا تجدني.

وكبرنا معًا يا أحمد، وكبرَ الحبّ الذي جمعنا، تركت لك ذكرياتٍ جميلة، أرجو أن تحافظ عليها وتكون وفيّا لها على الأقلّ إنْ لم تكن وفيّا لحبّي.. أعترف أنّني لم أكنْ وفيّة لها حاولت نسيانها، لكنّها كانت لصيقةً بذاكرتي.

أخبرت الجميعَ بعلاقتنا، وخطبتني من عمّي، حتّى يأتي والدي.. استغرب في بادئ الأمر؛ لصغر أعمارنا، خصوصًا أنا، لكنّه ساندنا لمّا رأى أنّ ما بيننا ليس من السّهل أن ينتهي إلّا بموت أحدنا، كما كانوا يقولون، لست أدري أأنتَ مَن متّ الآن، أم أنا؟

كمْ كان عمّي يوصيك بي، ويعاقبك كلّما أخطأت في حقّي، ترى ما تراهُ يفعل لو كان موجودًا بيننا اليوم؟ كان يحبّني حقّا، ويعاملني معاملة الأب لا العمّ.. تمنيت لو أنّه هو مَن كان أبي.

لكنّ يدَ المنيّة طالت مَن أحبّاني بصدق، ولم يجْرحاني يومًا؛ أمّي وعمّي، يُتّمْتُ مرتيْن، ثمّ سجنت في بيتِ أبٍ لا تجمعني به سوى رابطة الدّم وبعض الذكريات.

مرّت ثلاث سنوات على علاقتنا، تكون أحنّ عليّ من نفسي أحيانًا وتقسو عليّ أحيانًا.. لكنّني كنت أحبّك في كلّ حالاتك، وأغفر زلّاتك كما لم تغفر أنثى.

كنتُ طيلة هذه السنوات متفوّقة في دراستي، كبرتْ معي طموحاتي، وكانت أمّي سعيدة جدًّا لأجلي رغم كلّ شيء، كنّا سعيدتيْن رغم المستقبل المجهول.. عمّي كان كريماً معنا لأقصى الحدود، وغمرني بطيبة وحنانٍ شديدين، لكنّ أبي انقطعت أخباره عنّا، وما عاد حتّى يرسل لنا المال في السّنة الأخيرة لولا عمّي لكنّا في الشّارع، أيّ أبٍ كنت يا أبي؟!!

ومرضتْ أمّي، أصيبت قرّة عيني بقصور قلبي، نحلت كثيرًا.. وما عادت تقدرُ على بذل مجهودٍ كبير، لكنّها كانت تقاوم لأجلي، وأنا أتظاهر بالصّمود لأجلها.

ساندتني في تلك الفترة كثيرًا يا أحمد.. أنت ومجد وليلى.. مسحتُم دموعي، ومنحتموني القوّة والإرادة.. كان قلبي يتمزّق لحال أمّي ولإهمال والدي، لكنّني كنت أتناسى لوجودكم جانبي.

أحترق لرؤيتها تتألّم ولا تُظهر، تبتسم طوال الوقت وقلبُها يموت داخل صدرها..

وجاء ذلك اليوم الذي اسودّ فيه الكون في عيني، انقلبت حياتي رأسًا على عقب، انطفأت شمعتي التي كانت تنير دربي.. احترقت من أجلي حتّى جاء اليوم الذي ذابت فيه وتركتني وحدي أتعثر في الظلام.. ورحلت.. بقيت جسدًا ممزّقًا.. عجوزًا في السادسة عشر خريفًا، حتى نسيت كيف تكون البسمة!! صار يغمى عليّ كثيرًا في تلك الفترة.. ولا أتكلّم إلّا نادرًا، وما زاد من عذابي غيابُ أبي، لكن لا أنكر أنّي وجدت منكم دعمًا معنويًّا كبيرًا، كنت تنام معي وأخواك في غرفتي، لم تتركوني ولا للحظة.. وكذلك عمّي ووالدتك.

دعْمكم جعلني أقفُ من جديد، لم أعدْ كما كنت، لكنني قاومت ووقفت على قدمي مرّة أخرى..

تراجعت نتائجي في الدّراسة، لكنّني اجتزت ذلك العام، ولم أرسب كما ظننت..

وجودُك إلى جانبي في تلك الفترة، وحضنُك الذي كان أوّل حضن بكيتُ فيه، وتشبثت به، زادني تعلّقًا بك.. صرت ملجئي ومنقذي من الألم الذي ينخرُ قلبي كلّ مرّة..

كمْ كنتُ أبتسم أمامكم، أتَظاهر بالقوّة وأبكي في الظّلمة وحدي.. أضعُ يدي على فمّي حتّى لا أصدر صوتًا وأزعج ليلى التي صرتُ أنام معها في غرفتها، وأبكي حتّى أشفق على نفسي..

هكذا أمستْ حياتي؛ تصنّع القوّة والنسيان نهارًا، والبكاء وحيدة ليلًا...

أبدًا.. ليس سهلًا أن تفقد والديك معًا في أكثر فترة في حياتك تحتاجهما فيها..

كنت لمّا أرى حبّ والديكم لكُم يا أحمد وأنظرُ إلى سرير أمّي فارغًا، وأبي الذي لم يبقَ لي منه سوى صورته؛ أغبطكم كثيرًا، وتستيقظ في قلبي آلامٌ مبرحة وهموم معتلجة..

رغمَ محاولاتكم إدخال الفرح إلى حياتي إلّا أنّني كنت أشعرُ بوحشة عميقة داخل فوّهة عظيمة حتى أختنق..

هكذا كانت حياتي، دخل لها الألمُ وتسرّب شيئًا فشيئًا، أتلقّى صفعة كلّ مرّة، وتسرق منّي نجمة من النجوم التي أستنيرُ بها حتّى لمّا شارفتُ على الانهيار.. لمّا لم تترك لي الحياة نجمة.. ولمّا سكن الألم كلّ دروبي؛ وجدت نفسي أمامَ خيارين: الفناء في العدم، وبكاء نجومي الضائعة، أو النور الذي دخل حياتي فجأة.. واليوم أقرّر أن أتبعها وأقاوم أوجاعي.

في إحدى الأمسيات، أخذني أحمد لنتمشى معًا على الشاطئ، يحاول إضحاكي ورسمَ البسمة على وجهي، ثمّ عدنا للمنزل لأجدَ أبي في انتظاري.

بقيت أنظر إليه بلا أيّ تعابير.. تركته يقرأ عيني، وعجزت عن الكلام، بينما اعتلتِ الدّهشة وجهَ أحمد الذي صُدم لهذه الزّيارة غيْر المتوقّعة بعد الغياب المخيف.. بقي أبي ينظرُ في وجهي وكأنّه لم يعرفني، بدا عليه الوجوم ومسحةٌ من الحزن اعتلت ملامحه..

كسر أحمد جدارَ الصّمت، وذهب يسلّم عليه، ويسأل عن أحواله، وأسبابِ انقطاعه المفاجئ عنّا.. أمّا أنا فقد بقيتُ على حالي. وقف وتقدّم منّي.. "ألن تسلّمي عليّ يا جنان؟" ابتعدت عنه، ثمّ عدت أدراجي مسرعةً نحو غرفتي، وأغلقت الباب، وطفقت أبكي بحرقة.

لم أقدر حتى على عتابه.. أنْ أصيح فيه: أين كنت؟ لمَ تركتني أصارع الأمواج وحدي؟

لكنّ غضبي منه، وخيبتي فيه كانت أشدّ من أيّ كلام.. سالت لرؤيته دموعي وسط نظراتي المنكسرة كأبلغ تعبير.

جاء عمّي إلى غرفتي يحاول إقناعي بالتحدّث معه، وأخبرني أنّ أبي يشتاق لي، وأنّه لم يعلم بوفاة أمّي إلّا البارحة، وأنّه قد يكون معه عذرٌ لغيابه.. رفضت لأنّني كنت منهكة، وعلى وشك الانهيار.. مؤجلة حديثي معه إلى الغد.

لأستيقظ صباحًا على صوتِ شجار بين أبي وعمّي، ظننت أنّي أحلم.. لكنّ الصّوت زاد ارتفاعًا، وسمعت عمّي يصرخ باسمي قائلًا له: إنّ جنان ابنتي، ولن تغادر منزلي مهما حصل، علمت أنّني سببُ الشجار، وخرجت مسرعة لأتبيّن السّبب، رأيت مجد وأحمد يحولان بينهما، وكأنّهما عدوان، كلاهما ينظرُ للآخر بحقدٍ شديد.. لمّا رآني أبي صرخ بي: "جنان، اجمعي حاجاتك؛ سوف نغادر الآن".. طلب منّي عمّي أن أعود لغرفتي، واشتدّ الشجار بينهما.. جاءت زوجة عمّي وأخذتني معها إلى غرفتها تهدئني وتخبرني أن كلّ شيء سيكون على ما يرام، ولن يقدر أحد على إخراجي من هذا البيت حتى ولو كان والدي.. قلبي كان يرجف وأنا أنتظر ما سيحصل.

طرد عمّي أبي من المنزل، ولم أعلم سببَ شجارهما، أخبرني أحمد أنّ أبي جاء ليأخذني لنعيش معًا في منزلنا، ورفض عمّي ذهابي؛ فتشاجرا لكنّي لم أصدّق لأني أعرف طبع عمّي السّلس جيّدًا، وأعرف أبي الذي يصدمني في

كلّ مرّة بما لا أتوقّع، كما أدركت بفطرتي أنّ وراء غيابه أمرٌ محيرٌ هو سبب شجاره مع عمّي الذي منذ مجيئي إلى بيته لم أرَه غاضبًا، ولم يرفع صوتَه على أحد.

لم يعدْ أبي إلى المنزل منذ ذلك اليوم، لكن بعد شهر تقريبًا جاءني أمام المعهد، أصرّ على أن نتحدّث ولم يترك لي مجالًا للرّفض، أمسك بيدي وأخذني إلى مقهى قريب.

منذ ذلك اليوم، ما عدت أراك يا أبي، وانقطع آخر خيط أملٍ قد يعيدك إلى مكانك عندي، وبقي الجرح الذي خلّفته يحرقني إلى هذا اليوم.. ولدت من صلبك يا أبي، ثمّ قرّرت دفن شبابي بيدك مِن أجل شهواتك وحياتك، حطّمت حياتي وقتلت آمالي.

تحجّجت لي بالقدر، وأنّه ظلمك وظلمني، وانّك تحتاجني ولم يبقَ لك سواي.. والوعد الذي كنت في كلّ مرّة تردّده.. «ستصلح كلّ شيء»، لكنّك خرّبت كلّ حياتي وحُلْت بيني وبين السّعادة التي كنت- رغم ما حصل- أحاول خلقها لنفسي.. أخبرتني أنّك تزوّجت تلك المرأة بعد طلاقها من زوجها لأنّها وقت زواجها كانت حاملًا بابنك، وعليك الآن إصلاح خطئك، وإلّا ستسجن.. وعليّ أن أفهم وضعك وأساندك.

لم أفهم على ماذا تريديني أن أساندك؟! على خيانتك لأمّي التي لم يمرّ عام على وفاتها؟ لم أكنْ صغيرة وقتها يا أبي، كان يمكنك أن تعطيه النّسب دونَ أن

تتزوّجها.. لكنّك كنت تريدها ولا تريد أن تخسرني، أو بالأحرى تريد كسبَ رضائي لئلاّ يقولوا ترك ابنته من أجل عشيقته.

كلامُك عصف بكياني، ثمّ أردفت: "إنّها ليست سيئة، تعرّفي إليها، صدّقني إنّها طيّبة، لن يؤذيك أحد ما دمتُ معكِ".

عندها فقط، ثار بركاني واتّقد غضبٌ شديد بصدري، ودون أن أشعر قبضت على كأس الماء من أمامي، وسكبته عليه وخرجت أجري وأوقفت أوّل سيّارة أجرة لتقلّني إلى المنزل.

لم أبك يومَها يا أبي رغمَ هول المصيبة، كانت أكبر من أن تخفّفها الدّموع.. ما وجدته من عمّي وعائلته من دعمٍ معنويّ جعلني أستمرّ رغما عنّي..

في ذلك العام، كان مجد وليلى سيجتازان البكالوريا، وكان عليّ مساندتهما بكتْم وجعي وإظهار السّعادة والقوّة من أجلهما.

وحقّقا نجاحًا مبهرًا، قرّرت ليلى دراسةَ طبّ الأسنان مثل والدها، ومجد دراسة الهندسة بالعاصمة، وكان لهما ذلك.. لكنّ سعادتنا لم تدمْ طويلًا، بل ظننت لوهلة أنّ التعاسة والحظّ السيئ صارا يرافقاني أينما ذهبت..

تعرّض عمّي لحادث سيارة توفّي على أثره، رحل مَن شرع لي حضنَه وبيته بكلّ حفاوة.. رحل مَن حماني من ظلمِ القريب والبعيد.. رحل وخلّف جرحًا عميقًا في قلوبنا جميعًا.. رحل وتركني في مهبّ الرّيح يتمايل جسدي النحيل بين العواصف، ويمنعني من المسير بثبات مثلما كنت.. رحل الكتفُ

الذي كنت أتكئ عليه، وأختبئ وراءه كطفلة صغيرة.. رحل أبي الرّوحي، وبتّ يتيمة الأبوين.

كنت رجلًا عظيمًا، لم يلجأ لك أحدٌ إلّا فتحت له بابَك وساعدته.. لم تغرّك الأموال ولا النفوذ.. لكنّ الموت يختطف الصّالح والطالح.. لو أنّ الموت أخذ أبي بدلًا منك لكانت حياتي الآن مختلفة، لكنّنا لا نعرف مكانة الأشخاص إلّا حينما نفقدهم، ذهابك الغير متوقّع استنفذَ آخر جرعة عندي للمقاومة.. واستسلمت لقدري بلا حراك. تغيّر المنزل كليًّا؛ صار موحشًا كوحشة القبور غريبًا كغربة الظّلام.

فقدنا ابتسامتك التي لا تغيب، جمْعَك لنا تحت ذراعيك، وقولَك الذي يسري في أوصالنا: «أبنائي ومهجة فؤادي، أنتم ستبقون تحت جناحي ما دمت حيًّا».

اشتقت إلى دفء جناحك كثيرًا، لم أشعر بحرقة اليتيم إلّا لمّا رحلت عنّي..

لم أستطع حتّى مواساة أبنائه؛ فقد كنت أتعسهم، وأشدّ منهم حاجة للمواساة..

أرى ليلى تبكي فأبكي معها، ثمّ مجد فأبكي معه حتّى أحمد وزوجتك.. حملت ألَمهم إضافةً إلى ألمي؛ فكنت عبارة عن فرخٍ خرج لتوّه من بيضةٍ فمات

أبواه وهو ما زال يتعلّم الطيران... فبقي ينطّ بين أغصان الشجر، تحيط به الأعداء والمخاطر من كلّ جانب، ولا يقدر حتّى على الهروب.

عدنا إلى الدّراسة، وبدأنا في التّناسي.. لكن لم ننس، كيف يُنسى حبيب الرّوح وضوء العين؟! مَن كان القدوة والأنيس والراعي؟!

لكنّنا حاولنا فقط من أجلك.. من اجل أن تفخر بنا حتّى لو لم تكن معنا فأنت ترانا.. وفاة عمّي زادت أحمد تعلّقًا بي.. ذلك المكابر الذي لم يرَ أحدٌ دموعَه.. لم يكن يبكِ سوى أمامي.. يظهر التّماسك أمام أمّه وأخويه، يحاول إضحاكهم وحثّهم على الثّبات.. ويبكي أمامي.. يلقي رأسه على كتفي بعد محاضرة يلقيها أمام الجميع يوصيهم بضرورة الرّضا بالقدر والتفوّق في الدّراسة من أجل عمّي.. ويبكي كطفل صغير عندي.. لم يظهر ضعفه إلّا لي، ولم يطلب الدّعم إلّا منّي: «لا تتركيني يا جنان، أحتاجك كثيرًا».

ملكت بكلامك أطرافَ قلبي وجنبات صدري.. لم أتركك يومًا يا أحمد، لكنّك أنتَ مَن هجرت قلبي الذي حَواك بكلّ حبّ.. وتركتني لمّا كنت حقّا أحتاجك، لمّا كنت أغرق؛ مددتُ يدي أصرخ باسمك، فلم تجِبْ.. لمّا طاردتني الأشباح وافترست روحي.. كنت أسبح في دمائي وأستنجدُ بك، لكنّك لم تجبْ.. لماذا رحلت عنّي؟! هل وجدت حضنًا أحنّ عليك من حضني؟ هل يدها أدفئ عليك من يدي؟ هل أعطتك مِن روحها وقلبها وعقلها بلا مقابل مثلي؟ هل اهتمّت بك أكثر منّي؟!

لو رأيتك تُحرق يا قاتلي لرميْت نفسي وراءك وما تركتك، لكنّك لم تفهم حبّي..

كنت على أثر ما حصل على موعد مع امتحان البكالوريا، لكن لم تبقَ لديّ قوّة، وتملّكني الضّعف جسديًّا ومعنويًّا.

... عاد أبي يطلبني، لم يبال بحزننا، ولم يعزّنا حتى في أخيه الذي انتشله يومًا من الغرق..

داهمنا على حين غفلة.. شتمني بأسوأ الألفاظ حتّى انهارت كرامتي، أخبرني أنّه لم يبقَ لي أحدٌ سواه، وعليّ العودة معه.

بدأت ليلى في البكاء تترجّاه أن يتركني، هدّدته زوجة عمّي بأنّها ستتصل بالشرطة..

حاول أحمد التحدّث معه والتوصّل إلى حلّ، لكنّه لم يقبل، كان مصرًّا.. حتّى أمسكني من شعري يدفعني إلى الخارج كي أعود معه وأنا أصرخ وأبكي.. وإذ بمجد ينفجر غضبًا، ويدفع أبي حتّى سقط أرضًا، خلّصني منه وطلب منّي الذّهاب إلى غرفتي، وصرخ في أبي أنّني لن أخرج من هذا المنزل إلّا على جثّته.

صُدمْنا لتصرّف مجد الذي كان يتّسم بالهدوء والسّلم، لكنّ تصرّفه.. ولو كان يظهر عمق محبّته وإخاءه لي إلّا أنّه عاد علينا سلبًا.

قبل ذهاب مجد للجامعة، كلّف السّائق بإيصالي يوميًّا إلى المعهد وإعادتي إلى المنزل؛ خوفًا من والدي.. لكنّ هذا الآخر صبّ جلّ غضبه على مجد؛ جاءه يومًا إلى جامعته وضربه ضربًا مبرحًا، وهدّده إنْ لم يعدْني له لن يتركه في حاله، لم يخبرنا مجد بما حصل.

وكان يعلم أبي أنّ مجد سيكتم الأمر من أجلي؛ لذا اتصل بزوجة عمّي يهدّدها بمجد، وأنّه لن يتركه في حاله ما لم أعد.

لم يؤلمني تصّرفها آنذاك؛ فقد تملّكها الخوف على ابنها. نادتني على انفراد، ووسط دموعها طلبت منّي مغادرة المنزل والعودة لأبي حتّى نجد حلًّا، وأنّها لولا خوفها على ابنها ما كانت لترضى رحيلي.. طلبت منّي أن يبقى الأمر سرًّا بيننا، إلى اليوم لم أبحْ به لغير الورق.

شكرتُها على ضيافتها لي طوال هذه المدّة، وحملت حقائبي وغادرت بعد أن اتّصلت بأبي ليأخذني إلى منزله.. رحلت دونَ أن أخبر أحدًا من أبنائها.. فقط تركت رسالة لأحمد أخبره فيها أنّني تصالحت مع والدي، ويجب أن أعود إليه.

استقبال والدي لي لم يكنْ أتوقّعه، توقّعت أن يعاتبني.. لكنّه سُرّ لعودتي.. اعتذر منّي، وحاول إرضائي وما كان منّي إلّا الرّضا، بل كنت مجبرة على ذلك.

دخلنا إلى المنزل الجديد الذي اشتراه في العاصمة، كان الحيّ فقيرًا، والمنزل صغيرًا جدًّا ومتهالكًا.. وبدأت حياة الفقر مع المعاناة والذلّ.

لم يستطعْ أبي جمعَ المال الكافي لاستعادة منزلنا القديم؛ فاشترى هذا المنزل، وبدأ يعمل في شركة بناء.

تغيّرت حياتي كليًّا، وصار كلّ ما أتمنى أن أنجح في امتحان البكالوريا، وأغادر المدينة متعلّلة بالدّراسة.

مرّ الأسبوع الأوّل أثقل من الدّهر.. كان أبي يحاول إصلاح ما بيني وبينه، في حين يمهّد لإحضار زوجته.. لّما أتت لم يكن اللّقاء أسوأ ممّا توقعت، حاولت التقرّب منّي لكنّي كنت أبردَ من الجليد، حتّى الطّفل الصغير الذي تحمله بين يديها، والتي تقول أنّه أخي؛ لم أستجب لمشاكساته رغم عشقي للأطفال.

لم أكن أصدّق.. كيف حصل هذا؟ وانتهى بي المطاف هناك.

كنت أتألّم، لكنّ لا أشكو ولا أبدي أيّة مشاعر، أمّا هم فلمْ يبالوا.. أبي كان سعيدًا مع زوجته وابنه.. العائلة التي أعيش معها، ولا أشعر نحوها بأيّ انتماء.

يمضيان اللّيل في اللّهو والشّرب.. رائحة السجائر تصلُ حتّى غرفتي؛ فتخنقني أكثر..

أسمعُ صدى ضحكهما حتّى الفجر، فأشمئزّ وأزداد كرهًا لهما..

حتّى الطّفل الصّغير الذي سمّياه بيوسف.. لم أتمكّن من حمله وملاعبته.. شيء ما كان يحول بيني وبينه، لا أصدّق أن يكون أخي من تلك المرأة.

في إحدى اللّيالي الصّاخبة التي علتْ فيها أصوات الموسيقى من الصالون، وامتزجت بضحكاتهما التي تشعل النّار بصدري؛ ارتفع صوتُ بكاء الطّفل، كان يعلو أكثر وأكثر.. لم أستطع التحمّل؛ حاولت إغلاق أذني والنّوم، لكنْ دون جدوى.

لم يكن صوتُ لهوهما ما يزعجني؛ فقد اعتدته، لكنّ بكاء الطّفل لم أستطعْ تجاهله..

ذهبت إلى الغرفة التي وضع فيها، كان يبكي بشدّة، وجهه شديدُ الاحمرار.. وصوتُه يقطّع القلب..

صرخت بأعلى صوتي أنادي أبي.. لكنْ بدا أنّه لم يكن مهتمًّا بغيرها ولا يسمع غيرَ صوتها.

اقتربتُ منه وحملته، تملّكني إحساس غريب، كانت حرارته مرتفعة، ولم أدرِ ما سأفعل، بحثت عن دوائه وأعطيته له، حتّى هدأ قليلًا، وأنا أهزّه بين ذراعي، ملامحه كانت لطيفة، لامست شعرَه الأملس بأناملي بكلّ رقّة؛ فسكن عندي حتّى نام.. لم أستطع مفارقته بعد أن نام.. وجهه الملائكيّ خطف قلبي.

بقي قرابة السّاعة نائمًا في حضني، فيه طهرٌ أشتاقه، ورائحته الطيّبة أنستني- لوهلة- رائحةَ الشّرب الممتزجة بالخيانة المنبعثة من والديه، لمّا أحسَست بقدومهما؛ وضعته في مهدِه وعدت لغرفتي.

شيء ما جمعني بيوسف، صار لمّا يراني يحبو حتّى يقترب منّي، يمسك بيده الصّغيرة قدمي، ويقف أمامي متعلّقًا بهما، يظلّ ينظر لي، أحاول أن أتجاهله أمامهما.. لكنْ أحيانًا لا أصمد أمام تلك البراءة؛ فآخذه إلى غرفتي، وألاعبه حتّى تعلو ضحكاته تدغدغ روحي فأنتشي.

لولا وجوده لَما تحمّلت العيش معهما، أشتاق قطعة السّكر تلك كثيرًا، بقدر شفقتي عليه من أمٍّ لا تستحقّه.

لم أنجح في امتحان البكالوريا ذلك العام، ولم يكن الأمر مستبعَدًا؛ فالتقلّبات التي مررتُ بها شتّتت كامل عقلي؛ وحدتي.. وفراق أحبتي.. والعيش الذي لا يطاق كانت أسبابًا كافية لأرسُبَ بنجاح.

رسوبي زاد علاقتي مع أبي توترًا، وألقى اللّوم عليّ، ولم يسمح لي بزيارة أبناء عمّي.. ولا حتّى حضور حفل تخرّج أحمد الذي كنتُ أنتظره بفارغ الصّبر.

لمّا عدنا للدّراسة جاءني أحمد خِلسةً للمعهد، كان سروري برؤيته لا يوصَف، وأخبرني أنّه سيرحل للعمل في باريس.. بكيت وسط المعهد كالطفلة وأنا أودّعه.. أخبرني أنّه يحبّني ولن ينساني للحظة، وأنّه سيذهب

من أجلنا كي يعود ويتزوّجني.. أوصاني بأنْ أدرس وأنّه سيراسلني عن طرق مجد، أخذ قلبي معه وذهب لأعيش على ذكراه حتّى اليوم.

رغم وجودي مع مجد في نفس المكان إلاّ أنّ ما حصل بينه وأبي من شجارٍ منعني من مقابلته فذهب المسكين إلى أبي يطلب غفرانه.

وحاول هذا الأخير إهانته، طلب منه تقبيلَ يده، وفعلها مجد من أجلي، كما طلب منه مبلغًا ليس هيّنًا من المال، أخرجه مجد من حسابه ودفعه له.. أعترف أنّني محظوظة لوجود أخ صديق مثله إلى جانبي.

رغم صعوبة دراسته، إلاّ أنّه كان يخصّص وقتًا من أجل مساعدتي في الدّراسة، حفّزني كثيرًا وهو حتى اليوم بجانبي، وله فضل كبير في نجاحي ذلك العام.

نجاحي لم يكن أبدًا حلًّا لأزمتي كما توقّعت، رفض أبي أن أغادر المدينة، وتوترت علاقتي كليًّا مع زوجته التي أظهرت نحوي العداءَ والبغضاء، وبدأت تحاول استفزازي كلّما وجدت الفرصة وتُظهِر الودّ والطيبة أمام أبي.

عرفتُ منذ رأيتها أنّني سأخوض حربًا عسيرة، وإنْ لم أستطعِ الثأر لنفسي ولأمي لوجود أبي لصفّها؛ فإنّني لم أنحنِ للحظة ولم أسمح لها بكسري.

اختيار الشعبيّة التي سأدرسها كان صعبًا بعض الشيء، لم يكن مجموعي ليسمح لي باختيار ما أريد، لكن أيضًا كان عليّ اختيار أن أحبّه وأجد غايتي وامتيازي فيه.

ولأنّي أعشق القلم والورق، وتنسابُ الحروف سلسةً معبّرة عبر أناملي، ولأنّي أتميّز بالفصاحة والطّلاقة وحبّ التعبير؛ اخترت دراسة الصّحافة.

كنت أرى الإعلام والصّحافة رغم التشويه المُلحق بهذا القطاع.. رؤية مختلفة.. أراها مهنةً شريفة ذات قيمةٍ وهدف لَمن ربط قلبه الصدق والنّزاهة، وكان شعاره نصرة الحقّ وإخراج الأصوات المكلومة إلى النّور.. من اتّخذ عدسة الكاميرا عينًا تنقل ما تراه بوضوح، والقلمَ رفيقًا، وصوتَ الحقّ سلاحًا وضميرًا لا ينام.

وهكذا، عرفت دربي.. وبدأت رحلتي فتاة عشرينيّة بقلب لبؤة زادتني الحياة صلابةً بما رأته عيني..

انغمستُ بين الكتب والدّراسة، أعيش بينهما لحظاتِ نقاءٍ تأخذني من كدْر واقعي وحريّة من أسري.. وخيالي فرسٌ جامح يشق بي كلّ الحدود؛ فأهرب على متنِه كلّما طاردني القنوط.

عرفت أناسًا كثيرين، وحياة جديدة في الجامعة، لكنّي لم أنجرّ وراءها.. كانت طموحاتي تبعدني عن كلّ لهوٍ ومضيعة للوقت.

ظلّ مجد صديقي وأخي المقرّب، كنّا نلتقي كلّما سمحت الفرصة لنتشارك أحلامَنا وآلامنا، وأفضفض له عن معاناتي..

لّما أعود إلى البيت، أشعر بثقلٍ كبير في صدري.. عيشي في كنفِ عمّي بين أبنائه؛ خفّف وطأة فقدان أمّي.. لكن لّما انتقلت للعيش مع والدي أحسستُ

بلوعة فراقها أكثر.. خصوصًا وأنا أعيش مع مَن أبكياها حسرة وقهرًا تحت سقف واحد!!

كنت أتجاهل استفزازاتِ زوجة أبي لمّا أكون معها وحدنا.. لكن في إحدى المرّات لم أستطعِ التحمّل وصرخت في وجهها لمّا نزعت صورة أمّي المعلّقة على حائط غرفتي ومزّقتها.. كدت أجنّ وأنا أجمع فتاتِ الصّورة من سلّة المهملات وأبكي.. وضحكاتها السّامة ترتفع في السّماء.

لمّا رآني يوسف في ذلك الموقف، جاء واحتضنني متعلّقًا برقبتي، استسلمت لدفئه.. وأنا في أمسّ الحاجة لِمَن يواسيني.. احتضنته ودموعي تسيل رغمًا عنّي، فبدأ يمسح دمعي بكفّيه الصغيرتين.. رأيت الغيرة والحسد يملأ نظراتها، فيزيدها قسوة، وأخذت تفتك يوسف من بين أحضاني.

بدأ الصغير في البكاء والصّراخ رافضًا تَرْكي، كانت شدّة تعلّقه بي أكثر ما يُميتها غيرةً، وبوحشية أمسكتني من شعري حتّى سقطت أرضًا، وبدأت تركلني وتشتمني..

لمّا انتهت منّي وخارت قواها، ذهبت وتركتني أتلوّى وجعًا.. وقفت متناسيةً الألم وانْهلتُ أضربها بشراسة.. لا أعلم مِن أين أتتني تلك القوّة والجرأة.. تعالت صرخاتها وصرخاتُ يوسف وهو ينظر لنا، وفي تلك اللّحظة دخل أبي..

وكان الوقت والمشهد لصالحها، جثت أمامَه تنتحب وتلطم خدّها بشكلٍ يدعو للسخرية والاحتقار، أخبرته أنّني ضربت يوسف، ولمّا جاءت هي لتأخذه منّي ضربتُها هي الأخرى.. اتّسعت حدقتا عيني وما استطعتُ الكلام.. صدمتني وقاحتُها، ودون أن ينظر لملابسي الممزّقة وشعري المبعثر؛ صفعني بقوّة، وأدخلني لغرفتي، اتّهمني بالجنون، وضربني حتّى كاد يغمى عليّ، ثمّ أغلق باب غرفتي بالمفتاح.. وذهب لأحضان زوجته يحاول إرضاءها.

انكمشتُ على نفسي أنظر لسقف الغرفة، وقد أطبق الذهول على كلّ حواسي..

حين لا يبقى لك في هذه الدّنيا سوى كرامتك فتُداس بلا رحمة.. حتّى الدّموع تفقد القدرة على النزول.

بقيت يومين محبوسةً في غرفتي، منعني حتى من الذهاب للجامعة عقابًا لي، حتى يوسف الذي كان يقف أمام باب غرفتي وينادي باسمي ويبكي فيزيدني لوعة.. لم يسمحْ لي برؤيته.

يضع لي بعضَ الماء والطّعام، ويذهب..

لم أعدْ أتحمّل.. فتحت النافذة وقفزت منها ولويَتْ ساقي.. لم يكن معي ولا مليم؛ منهكة.. مريضة.. وقدماي بالكادِ تحْملانني، لم يخطر ببالي سوى

مجد، وقطعت كاملَ المسافة من منزلنا إلى الجامعة التي يدرس فيها مشيًا على الأقدام.

دخلت ساحة الجامعة في حالٍ يرثى لها.. بحثت عنه بعيني حتّى رأيته وسط أصدقائه.. لم أشأ إحراجه أمامهم وأنا في تلك الحال؛ فعدت أدراجي، لكنّه رآني فأقبل نحوي كالمجنون، فزعًا.. لم أستطع الكلام، أخذني بين ذراعيه غير مبالٍ لأحدٍ، وشقّ بي الطريق نحو المستشفى.

شكوتُ له حالي وما لقيته منهما من قسوة وإهانة وأنا لا أستطيع تكوين جُملة واحدة مكتملة من شدّة البكاء.. انفعل كثيرًا ولم يستطعِ احتمال رؤيتي في تلك الحال؛ فخرج وعاد لي في المساء، وأخبرني أنّه تحدّث مع والدي واتّفق معه بأن أنتقل للعيش في منزل جدتي.

دخل قلبي بعضُ الفرح والطمأنينة.. ولم أشأ أنْ أسأل «مجد» كيف توصّل لهذا الحلّ مع أبي.. لكنّ خجلي منه، ومن عطائه المستمرّ لي منعني.. لكنّي على يقين أنّه أخذ منه المال كالعادة.

انتقالي للعيش مع خالتي وجدّتي منحني بعض الرّاحة.. ولملمَ بعثرة خواطري. وجدت بين صدريْهما الحنان والسّكن الذي كنت أحتاجه.. تفوّقت في دراستي.. وكنت الأولى على دفعتي في العامين الأولين، وفي العام الثالث كنت على موعد مع التخرّج، وكذلك مجد.

تعاهدنا على أن نتخرّج بامتياز، ووضعنا الهدف نصبَ أعيننا.. لكنّ القدر كشف لي ما لم يكنْ في الحسبان.

في عطلة الشّتاء، قرّرت زيارة مجد في منزله، كنت قد اشتقت ليلى كثيرًا، فلم أرها منذ عامين، وكذلك زوجة عمّي.

لم يكنْ مجد على علمٍ بمجيئي، فلم يوصِ ليلى ووالدته بعدم إخباري بأمر زواج أحمد..

كان أحمد قد تزوّج منذ أوّل عام ذهب فيه، وأخفى عنّي مجد الأمرَ شفقةً بي، وكان يقرأ لي رسائل إلكترونية مزيّفة، قال إنّ أحمد يرسلها لي..

كنت سعيدة جدًّا لرؤية ليلى، ولم أفطن للحزن في عينيها وعين والدتها.. حتّى لمّا بقينا وحدنا اعتذرت لي عمّا فعله أحمد. كانت تخبرني أنه أيضًا لم يخبرهم مثلي.. وأنّ الجميع في صدمة من زواجه. كلّ كلمة كانت تخرجها تنسلّ كالخنجر في صدري، تغيّر لون النهار فجأة إلى السّواد، كدت أصيح فيها أنّها تكذب.. أن أحمد يحبّني ومِن المستحيل أن يتخلّى عنّي.. وأنّه كان يراسلني ويشتاقني.

أتى مجد وذهلَ لرؤيتي التي لم يتوقّعها، ارتباكه أكّد كلام ليلى.. ودون أن أسأله صرختُ فيه وخرجت من المنزل أجري دونَ أن ألتفت ورائي.

لمّا خلت أنّ القدر أخيرًا سيفرحني.. حطّم آمالي. كنت قد تجاوزت حزني وأنتظر تخرّجي وزواجي بأحمد لأستيقظ على سراب...

استقلّيت الحافلة عودةً إلى المنزل، كان المطر ينهمر، وأنا أنظر من النافذة وأبكي، وقلبي يحترق.

وصلت إلى تونس في وقتٍ متأخر، لم يعد بإمكاني العودة لمنزل جدتي لبعده، وصعوبة إيجاد الحافلة في ذلك الوقت، فعدت إلى بيت والدي..

وكان القدر يخبّئ لي ما أذاقني الأمرّيْن.

حاولت محوَ ذلك المشهد من ذاكرتي، لكنّه كان أعلق من أيّ شيء..

أسوأ ما حصل لي على الإطلاق.. شتّت روحَ الأنثى التي بداخلي إلى أشلاء، وجعل الموت كلّ ما أتمنّى.. طرقت الباب مرّات حتى فتح لي والدي..

غضب لّما رآني، وسألني لمَ جئت اليوم بالذات!! كان وجهي شاحبًا وعيناي مغرورقتيْن بالدّمع. سألته عن يوسف فأخبرني أنّه ذهب مع أمّه لمنزل جدّته، ثمّ أمرني أن أسرع إلى غرفتي.

رائحة الخمر تفوحُ من الصّالون، فعلمت أنّه في جلسةٍ خمريّة من أصحابه.. كانت ضحكاتهم تعلو كلّ مرّة أكثر تكاد تصمّ أذاني.. إضافة إلى الكلام الفاحش الذي يصدر منهم.

أتتْني رغبة شديدة في التقيؤ، كان عليّ أن أمرّ من أمام باب الصّالون لأذهب للحمّام.. مررت دون أن أنظرَ لهم، لكنّي شعرت ببعض النّظرات تلتهمني؛ فعدت مسرعة..

على الرّغم من التّعب لم أستطعِ النّوم، التفكير في أحمد طردَ النّوم من جفوني.. كان أجمل ما في حياتي وما يبقيني على قيد الأمل.. كيف لي تحمّل خسرانه هكذا! بلا سبب وبلا مقدّمات، ضاع منّي وأضاع فرحي....

أحسست بالبرد ينخر عظامي، وتلفحني الذكريات فتحترق عيناي من حرارة الدّموع..

غفوت قليلًا من شدّة التّعب، وقد انخفضت تلك الأصوات المزعجة فظننت أنّهم ذهبوا.. لم أجد سبيلًا للهروب من ذلك الألم سوى بالنّوم.

سمعت بابَ غرفتي يفتح، لم أتبيّن الطّيف الذي رأيته، كنت منهكةً لدرجة لم أستطعْ فتح عيني بالكامل..

لم يعتد أبي دخول غرفتي خاصّة وقت نومي.. ظننت أنّني أحلم، لكنّه أشعل النور.. الوجه ليس غريبًا لكنّي لم أعرفه.. نظراته شلّت أطرافي.. لم أستطع حتّى الصّراخ.. خانني صوتي.. أطرافي ثقلت.. تراجعت للوراء، وانكمشت على نفسي، وأنا أغطي جسدي الشبْه عارٍ بغطائي، وبدأت أرتجف بالكامل حتّى فكّاي يصطكّان ببعضهما...

اقترب مني ونزعَ عنّي الغطاء وألقاه أرضًا، تملّكني الرّعب حتّى النخاع.. أقبل رفيقه ينظرُ له ويضحك ويأمره بأن يسرع..

قفزت من السّرير أحاولُ الهرب، لكن سقطتُ من شدّة الخوف، وكلاهما ينظران لي ويضحكان.. وقفت فاقتربَ منّي أكثر.. أمسكني من شعري وقرّب وجهي إلى وجهه.. فصفعته...

أعاد لي الصّفعة، وألقاني إلى الأرض، واستلقى فوقي ينزع ملابسي.. كنت أصرخ وأنادي أبي، لكن بلا مجيب.. نزع عنّي ملابسي بالكامل، وشعرت أنّ كلّ أوجاع الدّنيا صبّت داخل جسدي فجأة، تركني أسبحُ في دمائي.. وأوجاعي... وإذْ برفيقه يبعدُه وينشب أظافره في لحمي.. وكأنّ كلّ قطعة في جسدي قد تمزّقت.. واعتدى عليّ بقوّة أكبر.. أحسستُ برحمي يحترق يكادُ ينفجر داخلي.. كدت أختنق من شدّة الصّراخ.. تداولا عليّ الواحد تلو الأخر أكثرَ من مرّة.. وفي كلّ مرّة أتألّم أكثر، وأكره نفسي أكثر وأحتقر الحياة بما فيها...

كانت النّار تضرم في جسدي.. وكلّ ما فيّ ينزف.. ولا أحد يهبّ لنجدتي..

ما تركاني إلّا لسماع صوت سيّارة مجد في الخارج.. ليته أتى قبل ذلك.. لمّا اتّصل بخالتي وعلمَ أنّني لم أعدْ لهم واتّصل بأبي فلم يردّ؛ هبّ قلقًا يبحث عنّي. كان يطرق الباب بقوّة وينادي باسمي.. أغلق أحدُهما باب غرفتي، والآخر وضع يدَه على فمي يمنعني من الصّراخ.. تظاهرت بالإغماء حتى تركني وصرخت أنادي مجد.. لمّا سمعني اتّصل بالشرطة، ظنّ أن أبي

وزوجته يعذّباني.. ويا ليت ذلك!! لمّا سمعا صوت سيّارات الشرطة حاولا الهروب، لكنْ نهضت أرتدي ملابسي وسقطت مغشيًّا عليّ.. لا أدري بعدها ما حصل.. بعض الصّور مازالت بذاكرتي لكنّها غير واضحة؛ مجد يهزّني من ذراعي ويوقظني.. خالتي تحتضنني وتبكي.. ليلى تحاول جعلي أتكلّم.. مجد يخبرني بانتحار والدي.. يوسف يحاول إضحاكي.. المستشفى.. العتمة.. الأسلاك.. الكهرباء... وبقايا ألمٍ وذكريات ودموع..».

انتهت جنان مع أذان الفجر، أصغت له بخشوع ولَهَجَت بالدّعاء..

شعرت ببعض الرّاحة.. بحثت عن حقيبتها، وأخرجت منها صورة أحمد.. أخذتها من الأوراق التي كتبتها، ورمتها في المدفأة، وأوقدت النّار..

في المساء، كانت جنان تحلق وسط أحلامها وترتّبها من جديد.. وقد جلست في شرفة المنزل تراقب الغروب، وذلك القرص الذّائب في السّماء يضفي لمعانًا ساحرًا على عينيْها.. قطع لحظة الصفاء النفسيّ تلك صوتُ خطوات سلمى.. كانت خطواتها ذاتَ ترنيمة جديدة، بطيئة وهادئة.. عكس دقّات قلبها الذي أخذ منحًى آخر.. لم ينبض تجاهه منذ زمن.. بادرتها جنان بالسّلام وابتسامة، فلم تردّ.. اقتربت منها؛ فلاحظت جنان تورّد خدّيها، وزيغان عينيها، وقد تحوّلت ملامح المرأة الصّامدة القويّة التي عرفتها إلى أخرى رقيقة حنونة... زادتها جاذبيّة.

وجّهت بصرها ليلتقي بنظرات جنان الحيرى.. ورفعت يدَها نحوها... ليفتر فاه جنان وهي ترى ذاك الخاتم يحتلّ بنْصَرَها..

«لقد عرض عليّ عمر الزّواج»

نبض قلبُ جنان بسرعة ليسابق دقّاتِ سلمى، وزيّن الفرح محيّاها «مبارك ماما سلمى».

* ليلة زفافها، كانت تحاكي جمال القمر.. وقد عادت صبيّة مشرقة، زادها إشعاع الفرح بهاءً وأنوثة. وكأنّها ولدت من جديد لتعيش هذه الفرحة كأنّها فرحتها الأولى..

وتألّقت جنان لتلك السّهرة الاستثنائيّة، فتفتّحت تلك الزّهرة من جديد لتحتلّ كلّ القلوب، وبالأخصّ قلب مجد الذي يراها زهرةً نادرة تفتحت لتزين الكون.. زهرة تفتحت وسط قلبِه، وتفرّعت فيه عروقها حتى باتَ من المحال أن ينزعها من داخله إلّا وينزع معها قلبه..

ودّ لو ينظر في عينها مليًّا دون أن ينكّس رأسه خجلًا منها أن تتعانق نظراتهما، ويتّحد مع الزّمن والكون حتّى لا يشعر بشيء غير حبّها ويخبرها عن شدّته، وأن لاشيء يعادل توقَه للحظة يتوحّد فيها قلبهما، وتنصهر روحهما معًا.

وكأنّها أحسّت به، اقتربت منه وقالت:

– مجد، أريد أن أتحدث إليك.

كاد قلبي يقفزُ من صدره..

- تفضّلي جنان.

- شكرًا لكلّ ما فعلته من أجلي يا مجد.. وجودك في حياتي نعمة من الله، صدقًا أنا محظوظة لأنّك صديقي وأخي.

شعر ببعض الدّوار والاختناق، وبانفعال، ودون أن يشعر بنفسه، ولا كيف نطقها لسانه..

- جنان، يمكنك أن تعتبريني كما شئت، أخاك، أباك أو مجردّ صديق، لكن إنْ كان لي القدرة على اختيار مكاني في حياتك لكانت أكثر من هذا.. جنان، كم أودّ لو تقبلي منّي ما تبقّى من عمري.. أكرّسه في إسعادك.. تتزوجيني؟".

أمّا هي، فظلت شاخصة فيه، تحاول أنْ تفهم أو أن تجيب فلا تستطيع.. لم تتوقّعها منه يومًا، بدأت بتمتمة كلمات لا معنى لها..

لّما علم أنّها لن تجيب؛ خرج من القاعة غير عابئ بأحدٍ، وكأنّه يحمل جبلًا فوق ظهره، اتّصل برفيق دربه حسام ليشكو له حاله، وما فعله بنفسه.

لم تصدّق جنان ما حصل.. ظلّت الوقتَ المتبقّي من السّهرة شاردةً، قضتها ذهابًا وإيابًا بين القاعة والباب الرئيسي ترقبُ عودة مجد، لكنّ سيارته لم تكن موجودة، انتابها بعض القلق حياله، لم يندثر سوى لّما عاد إثر انتهاء السّهرة ليأخذ والدته وليلى للمنزل.

سرقت منه بعضَ النّظرات تحاول قراءةَ ملامحه، كان حزينًا وغاضبًا في الآن نفسه..

ودّعت سلمى وعمر بحرارة، وذهبت مع خالتها وجدّتها إلى منزلهما، في حين يعود العروسان من شهر العسل، اللّذان أصرّا على أن تظلّ جنان تعيش معهما في منزلهما بعد عودتهما.

سعادتها من أجل سلمي وعمر لم تطفئ اضطرابَها وتفكيرها في مجد.. تساءلت: هل يعقل أنّ مجد قد أحبّها حقًّا؟! كان دائمًا في نظرها الفتى المثالي ذا الأخلاق الرّفيعة، هادئ الطبع والملامح، طيّب القلب... لم يصاحب فتاةً في حياته، كلّما سألوه: لماذا؟ أجاب: أنّه لم يحنِ الوقت، ولن يرضى بغير الحلال.. هل يعقل أنّه أحبّها بعد ذهاب أحمد لمّا صار قريبًا منها؟ لكن كيف لشخص مثله أن يخون أخاه.... هو كان يقرأ لها رسائل مزيّفة من أحمد! كان يملك الفرصة ليبعدها عنه، لكنه آثر الكتمان، بل وزيّف لها الواقع كي لا يبعدها عن أحمد.. هل تراه فعل ذلك رأفة بها؟ لكنه لم يظهر نحوها أية مشاعر تختلف عن مشاعر الأخ لأخته، رغم أنها كانت قريبة منه كلّ تلك الفترة أثناء دراستهما".

هل لمّا حاولت نسيان أحمد.. طلب يدها أخوه؟

هو يعلم أنّها تحبّ أخاه، فلماذا أخبرها الآن؟

كانت قد أغلقت هذا الباب.. ليس فقط بسبب ما فعله أحمد، بل لأنها من الصّعب الآن أن تتزوّج بعدما حصل لها.. ومَن سيرضى بفتاة قد اغْتُصبت؟!! ذكرى الحادثة أنزلت دموعها من جديد، وذهب تحليلها إلى أنّ مجد تقدّم للزواج بها شفقة عليها..

كانت غارقة في أثر تلك الخيبة.. حتّى رنّ هاتفها، تمعّنت في الرّقم.. لم تعرفه. تُرى مَن يتّصل بها في هذا الوقت؟ أجابت وهي تحاول تقويمَ صوتها الذّابل من البكاء..

«مَن؟»

أتى الصّوت غريبًا وخافتًا..

– مرحبًا جنان، آسف على إزعاجك، أنا حسام صديق مجد.

خفق قلبُها لسماع اسم مجد..

– نعم.. تفضّل أخي..

– جنان، لا أستطيع التحدّث على الهاتف، هل يمكن أن نلتقي غدًا؟. لكن دون أن يعلم مجد، أرجوك.

أجابت بالموافقة، وغاصت في تفكيرها...

في الصباح، كانت تنتظره في إحدى المقاهي في وسط المدينة، تطرق برأسها آلافُ الأسئلة، رأت حسام مقبلًا نحوها، فعرفته، تبادلا التحيّة وجلسا.

– جنان، لن أطيل عليك الموضوع، أرجوك أصغي إليّ، مجد يحبّك منذ طفولتكما.

اتّسعت حدقتاها، لكنّه أكمل..

– كبرَ حبّك في قلبه مع الأيّام، كان ينوي أن يتقدّم لك قبل أن يذهب للجامعة، لكنّك خطبت لأحمد وأنتم مازلتم في الثّانوي.. تألّم كثيرًا، لكنّه سعيد من أجلكما، وحاول نسيانك ولم يقدر، وهو يوميّا يراك أمامه.

جنان، أعلم أن ما ستسمعينه الآن سيزعجك، لكنّ يجب أن تعرفي كلّ شيء، وتقرّري مصيرك بنفسك.. تتذكّرين شجارات مجد وأحمد اللّا مفهومة؟ كانت من أجلك... تعلمين لماذا؟ لأنّ أحمد لم يخلِص لك يومًا.. كان كثير العلاقات، وعرف فتيات كثيرات وهو معك.. في كلّ مرّة يكتشف مجد الأمرَ يتشاجر معه.. ولم يخبرك أبدًا، هو يعلم شدّة تعلّقك به كما كان يأمل في استقامته؛ لذا كتم الأمر.. رفعة أخلاقه جعلته يؤثر الاحتراق غيرةً مقابل سعادتك.. حتّى لمّا تزوّج أحمد لم يخبرك.. ويدّعي أنّه.... يراسلك وسأل عن أخبارك.. ولمّا دخلتِ المستشفى؛ مجد كان يتعذّب من أجلك.. أضاع الكثير من الدّروس، حتّى أن جميع الأساتذة استغربوا كيف استطاع اللّحاق والنّجاح هذا العام!! شهر كامل ظلّ فيه في المسجد يصلّي من أجلك.

تضاعفت علاماتُ الذّهول على وجهها، وهمّت بالكلام فقاطعها:

– أحمد لم يفكر بك، صار مديرًا للشركة التي كان يعمل فيها؛ لأنّه تزوّج ابنة مالكها، وزوجته حامل الآن..

صعقت.. ورفعت بصرها للسّماء تمنعُ عبرتها من النّزول، لمّا رأى اضطرابها أكمل:

– جنان، لقد أخبرني مجد بأنّه سيتقدّم للزواج بك.. أحمد الآن له عائلة وحياته الخاصّة، اختار حياته بعيدًا عنكم.. لا تقفي أنت في منتصف الطّريق ترجين عودته.. الْتفتي لحياتك ومستقبلك، لم ينته شيء.. بل الآن بدأت؛ رزقك الله عائلة طيّبة.. أحبّوك بلا مقابل، لك جدّتك أيضًا وخالتك.. ليلى تعتبرك أختًا لها، وبجانبك رجلٌ تتمناه كلّ النّساء، ولا يتمنّى في هذه الدّنيا غيرك..

عادت لتلقي بنفسها في حجر جدّتها.. ذلك الحجر الذي كبرت فيه أمّها، وهي الآن تبحث فيه عن رائحتها.. داعبت الجدّة خصلات شعرها بيدِها المجعّدتين.. وبإحساس الأمّ سألتها:

– ما بها صغيرتي؟!!

– لا شيء يا جدّتي، اشتقت إليك.

وضعت يدها تحت ذقنها، ورفعت رأسها إليها، وتفرّست في عينيها:

– هذه النظرات أعرفها جيّدا.. كنت كثيرًا ما أراها عند أمّك! ما الخطب يا جنان؟

– لقد عرض عليّ مجد الزّواج يا جدّتي..

تهلّلت أساريرها، واكتسى وجهها ببسمة حنونة...

– مبارك يا صغيرتي.

– لكن جدّتي!

قاطعتها:

– أنصتي لي يا جنان، لم يبقَ من عمري الكثير؛ أريد أن أطمئنّ عليك قبل رحيلي، مجد رجل صالح، سأكون في منتهى راحتي لو أراك زوجته، أنا متأكّدة أنّه لن يخذلك مهما صار، ولن تري منه إلّا الخير.. لم تري كم كان قلقًا عليك لمّا مرضت!! اهتمامه بك لن تجديه في غيره.. حتّى نحن يا جنان، فترة مكوثك في المستشفى كان يزورنا، يتفقّد أحوالنا ويقضي حوائجنا.. إنّه من طينة نادرة الوجود في هذا الزّمن يا حبيبتي؛ هو رجل طيب، وأنت تستحقين مثله، حتى لو كان فكرك مازال عند أحمد، مع الوقت ستحبين مجد، وأنا متأكدة من هذا، قلباكما يتشابهان كثيرًا، ستصيران نفسًا واحدة، هذا ما يخبرني به قلبي، وقلب الأمّ لا يخطئ يا قرّةَ عيني.

بعد صلاة العشاء، التقى مجد بحسام وبعض أصدقاء الدّراسة، طوال الوقت كان شاردًا، حتّى لاحظ أصدقاؤه أنّه ليس في حالته الطبيعيّة..

رنّ هاتفه معلنًا عن رسالة.. تجاهلها وحاول الخروج من شروده والانسجام معهم..

عاد إلى تفكيره وهو يقود السيّارة إلى المنزل، خاف أن يكون قد خسرها، أن يكون طلبه ذاك الفيصل بين صداقتهما أيضًا.

فكّر في أن يتّصل بها، ويسأل عن أحوالها متجاهلًا الأمر.. أخذ هاتفه وقرأ الرّسالة التي وصلته سابقًا:

«مجد، أنا موافقة».

كادت سيارته ترتطم بالتي أمامه.. أدارها وركنها، ثمّ تمشّى لا يعلم أين.. أخذته خطاه إلى الشاطئ فألقى نفسه على الرّمل، وصدره يعلو وينزل بسرعة... رائحة الرّمال المبتلّة زادته نشوة، وأصوات الأمواج تطربُ سمعه.. أحسّ أنّه امْتلك الدّنيا، وأنّه أضحى أسعدَ مخلوق على الأرض.

لم يقدرْ على النّوم حتّى أشرقت الشّمس.. خرج ينتقي لها بعض الهدايا.. ولم ينسَ خالتها وجدّتها، وذهب لزيارتها.. والفرح يكاد يَذهب بعقله.

بدتْ مشرقة، والحياء يزيّنها، وقد زادت جمالًا.. خرجا يتجوّلان معًا.. تحدّثا كثيرًا.. أفصح كلّ منهما للآخر عمّا في نفسه.. أخبرها عن مشاعره المتراكمة في صدره نحوها.. عن أحلامه وعمّا يبتغيه.. حدّثته عن مخاوفها، وشوقها للاستقرار والسّعادة؛ فأقسم لها أنّه سيعمل على إدخال الفرح إلى قلبها، ويعوّضها عن كلّ الذي ذاقته، ولن يهدأ له بال حتّى يرى بريقَ عينيها الفاتن يعود إلى ملجئه فيهما.

عادت جنان إلى دراستها لتكمل عامَها الأخير الذي ستكرم فيه جهودها وتحوز على شهادة التخرّج، وكان لها مجد خيرَ معين ورفيق.. لم يشعرها يومًا أنّها أنثى ناقصة، بل جعلها تعشق وجودها، وتمتطي صهوة الأماني بعزم وثبات.

وعرفت معاني جديدة بالحياة معه..

ظلّت تتردّد بين منزليْ جدّتها وسلمي، وفي نهاية الأسبوع يأخذها مجد إلى سوسة؛ حيث تقضي فسحة بين أروقة الذّكريات التّي خلقت فيها هناك..

تحاول إعادة صوغها ومحوَ ما يجب عليها أن تنساه إلى الأبد..

وجدَ مجد عقدَ عمل في مكّة كما كان يحلم، وأجّل الذّهاب حتّى تتخرّج جنان وتقع خطبتها رسميًّا، ثمّ يذهب، ولمّا يصير حاضرًا للزواج ماديًّا يأتي ليأخذها معه.

وبعد تخرّجها، خطبها مجد من عمر في بيته.. ملأت الغبطة قلوبًا اشتاقت للفرح.. كلّ مَن يعرف جنان وحكايتها فرحَ لأجلها.. حتّى زوجة عمّها.. لم تكن متهيّئة نفسيًّا؛ افتقادها لأحمد وانشغال بالها عليه شكّل عائقًا أمام موافقتها في البادئ.. لكن ما كان عليها سوى أن توافق لإصرار مجد، وكي لا تحرمه من حقّه في السّعادة بسبب أخيه.. ثمّ لمّا رأت التّمازج الرّوحي بينهما والانسجام بينهما واللّذين لا تخفى على أحد يراهما؛ باركت هذه العلاقة متمنّية لهما الهناء والسّكن.

بدأ مجد يجهّز نفسه للرّحيل..

أمّا هي وجدت عملًا في وكالة أنباء، ولمّا صارت مستقلّة ماديًّا بدأت سعيها نحو أمر كان يؤرّق مضجعها.. وهو الحصول على حضانة يوسف.

استعانت بمعارف مجد من حقوقيّين ساعدوها على ربح القضيّة؛ لأنّ أمّه سلكت طريق البغاء بعد ترمّلها، فكان الأمر لصالح جنان التي احتضنت أخاها أخيرًا.

تركته ابنَ العامين وعادت إليه بعد عامين.. رغم صغره إلاّ أنّه تذكّرها..

ظنّت أنّه سيعتاد على فراق أمّه بصعوبة، وستواجه عسرًا في جعله يتأقلم مع الحياة الجديدة، لكنّ الأمر كان جدّ سهلًا.. بل إنّه يظلّ يبكيها لمّا تذهب لعملها حتّى تعود.

في نهاية المطاف، استطاعت التّصالح مع الحياة بعد انقطاع مخيف أدّى بها إلى محاولة هجرانها.

* جلست تداعب يوسف إثر يوم منهك، حاولت الذّهاب إلى النّوم وتركه مع خالتها، لكنّه أبى وأصّر عليها أن تلعب معه..

طرق الباب فذهبت لتفتح، أصابها الذهول.. ظلّت جامدة بلا أدنى حراك، أحسّت بحرارة تدفق حتّى رأسها واحمرّت وجنتاها على الفور.. تراجعت قدماها إلى الخلف وأصابها دوار خفيف؛ فاستندت إلى الباب،

أمالت رأسها يمنة ويسرة، ثمّ أطرقت تنظر إلى الأرض، تمنّت لو تنشق وتبتلعها وتريحها من هذا العناء.

– ستبقين هكذا مطوّلًا؟!!

علا صوت أنفاسها مغطّيًا صوت دقّات قلبها، وسادت لحظة صمتٍ طويلة ممزوجة بحزن عظيم كسا وجهها، وهي واقفة كتمثال..

أشار إليها بالدّخول ممسكًا بذراعيها وأغلق الباب، رأى يوسف أمامه والذي جاء إليه وفي يده لعبة.. داعبه قليلًا إلى أن عاد إليها رشدها، ازدردت ريقها، وسألته بصعوبة.. ولم تدر كيف جمعت الحروف، ورتّبتها لتنطقها صحيحة:

– متى جئت؟

– البارحة..

– البارحة!! لكن.. البارحة.. كنت أتحدّث مع ليلى على الإنترنت لم تخبرني!!

– هي لا تعلم، بتّ في نزل قريب، أردت أن تكوني أوّل مَن أراه، لو تعلمين كم اشْتقت إليك!!

ارتبكت وارتجفَ قلبها، لم تره من أكثر من ثلاث سنوات، منذ آخر مرّة تركها تبكي وراءه وهي تشيّع طيفه بعينيها..

ظنّت أنّها نسيته وفتحت قلبها لغيره، فما مغزى هذه الأحاسيس الغريبة والنّبضات التي تكاد تصرخ وسط صدرها!!؟ تذكّرت «مجد» فحاولت إخراسها وفاءً له؛ فلم تقدر.. حقًّا اشتاقت له، تمنّت لو تتعلّق برقبته وتبكي وتخبره عن كلّ ما جرى لها في غيابه وما لاقته من عوائق.. أن تصرخ بوجهه، تعاتبه، رغبة شديدة في البكاء تخنقها، في أن تعيد حكاية تفاصيل حياتها من أولها حتى ساعة لقائه أمامه، ثمّ تشتمه، تلعنه، وتصبّ عليه جلّ غضبها حتى تهدأ..

- ازددتِ جمالًا..

أطرقت برأسها خجلًا.. وهي تحاول ألّا تنظر إليه فتخونُها عبراتها.

حاولت تصنّع اللّامبالاة، وسألته:

- إذًا، كيف حال زوجتك وابنك؟

- ابني ولِدَ ميّتًا.. وأنا وزوجتي انفصلنا.

انتابتها رهبة.. ولم تعرف ما تقول!!

- جنان، هي كانت زوجتي على الأوراق فقط، الأمر معقّد، لا وقت لديّ لشرحها.. أنا لم أحبّها يومًا كما لم تغادري قلبي يومًا.. صدّقيني.

شعرت ببعض الارتياح وفرحٍ دفين، لكنّها صاحت فيه متجاهلة تلك المشاعر المختلطة:

– كاذب! أنتَ لم تحبّني يا أحمد.. أنت أحببت إيهامي وتعلّقي بك.. أحببت الفتاة الطيبة حدّ السذاجة التي أعطتك من روحها بلا اكتفاء.. أتظنّني لم أفطن إلى خياناتك السّابقة! ثمّ تزوّجت منذ وطئت قدمك أرضًا أخرى! أيّا كانت الأسباب.. ألم تفكّر فيّ؟ أنت حتّى لم تسأل على أحوالي.. كدتُ أموت يا أحمد، ولم أجد غير مجد.

انفعل لسماع اسم مجد، واحتقن وجهه غيرةً، وصاح:

– إذًا، مجد هو مَن أخبرك! اسمعيني جنان، أعترف أنّني حقًّا قد أخطأت في حقّك، انصعتُ لشهواتي آنفًا.. لكن لم أحبّ غيرك وأردتك حلالًا، تزوّجت من أجل المال.. كانت أمنيتي أن أعود بثروة، لقد تركت عائلتي وهاجرت لأحقّق هذا المبتغى، وأعود لأبني أسرة أنتِ ملكتها، وكنت أسأل عنك "مجد" وليلى طيلة هذه الفترة، لكنّها حملت ولم نكن متّفقين على هذا، وما عاد بإمكانها إنزال الطّفل.. هي لم تكن تريده، وأنا لا أسمح لنفسي بالتخلّي عن ابني، كنت أخطّط لأحضره معي وأطلّقها، لكنّ القدر لم يكتب له الحياة، وعدت إليك فما عاد بإمكاني تحمّل الحنين القاتل إليك.. لم تغادري عقلي منذ ذهبت، أنا آسف يا جنان؛ دعيني أثبت لك كم أنتِ غالية بالنسبة لي، أنا حقًّا لا أريد سواك، وكلّ ما فعلته من أجلك.. من أجل أن نعيش سويّا في رغد وهناء..

إلى آخر لحظة قبل عودته بدأت تنساه، أو هكذا حسبت.. لكنّها الآن على يقين.. حقيقة لا تقبل الشكّ.. أنّها لم تحبّ غيره.. استيقظت تلك المشاعر الغافية لمّا رأته لتنهض فيها بقوّة، كالنّار المستعرة لتحرق تلك المضغة بين أضلعها، نظرات عينه فيها شيء جديد لم تعقلْه، أهو النّدم والتقريع.. أم الاشتياق.. أم ماذا؟

لكنّه بدا لها صادقًا.. لدرجة أنّبت ضميرها لو انتظرته.. لو فقط راسلته؛ لكانت سعادتهما اليوم مكتملة بعودته.. لو لم تصغِ لحسام، لو أخرست كلّ الأفواه وسمعت صوت قلبها.. لو..

أشاع أحمد ببصره ليقع على صورة خطوبة جنان ومجد.. تحوّل الانكسار الّذي في عينيه إلى الغضب.. صُدِم... كاد يغمى عليه..

وبانفعال أمسك الصّورة ورماها على الحائط، فتساقطت شظايا..

كان يرتعد.. واحمرارُ عينيْه في ازدياد حتّى نزلت دموعه، ثمّ تركها وخرج ضاربًا البابَ وراءه بكلّ قوّة اهتزّت على إثرها..

لم تستوعب الأمر بعد.. هل حقًّا عاد!؟ كيف، ومتى، ولماذا؟ وماذا ستفعل؟ كيف ستواجه الأمر؟ هل سيستمر كلّ شيء على حاله؟

اضطربت مشاعرها وتلاحقت دقات قلبها، استحضرت المشهد؛ اللحظة التي طرق فيها الباب.. رؤية وجهه الذي لم يمحَ من ذاكرتها.. دخوله.. ذهولها.. كلماته.. وغضبه إثر علمه بعلاقتها بمجد.

خارت قواها، وشعرت بالغثيان، فجلست على المقعد بهدوء، وعيناها متّسعتان غائرتان محدقتان في الفراغ.. جسدها يرتجف وقلبها يخفق بسرعة.. ظلت ساكنة للحظات غارقةً في صدمتها.. لم تشعر حتى بمداعبات يوسف ولمساته لها.

أخرجها مِن شرودها فجأة صوتُ خالتها التي نادتها للمرة الثالثة:

– جنان، ما بك!؟

نظرت إليها وعلاماتُ الذهول لا تزال على وجهها ولم تجبْ.. حاولت أن تنطق فوجدت لسانها ثقيلًا، قامت من مكانها وأسرعت إلى الحمام، وشرعت ترمي الماء على وجهها كأنّها تصفعه.

نظرت إلى المرآة، رأت وجهها غارقًا في الحزن.. تساءلت: إلى متى ستظلّ أسيرة مشاعرها التي لا تستطيع إخفاءها؟ إلى متى ستظلّ في حساسيتها القاتلة هذه!؟ صرخت.. ثمّ تحوّل انكسارها إلى غضبٍ شديد.. «كم أمقت هذه المشاعر اللعينة، أمقت هذا الضعف!!»

خرجت لتجدَ خالتها تنتظرها أمامَ الباب في حيرة، اصطنعت ابتسامةً رسمتها بجهد:

– لا تقلقي، أنا بخير.. سأخرج لأتمشى قليلًا؛ انتبهي ليوسف.

وذهبت متجاهلةً نداءاتها..

اتّجهت إلى شاطئ البحر مكانِها المعتاد إذا ما داهمها الأسى، جلست على الرمال واحتضنت نفسَها، وعيناها مصوّبتان إلى الأفق.

كانت تفكّر بحيرة.. بلهفة.. وألمٍ بهذا الهمّ الذي عاد ليغزو قلبها الواهن..

بدأ المطر بالنزول.. كانت برودته تنزل زخّات على جلدها الناعم ممّا جعلها تشعر ببعض اللّذة وهي تستشعر دغدغته لعظامها.

وقفت وفتحتْ ذراعيها ورفعت رأسها، وأغمضت عينيْها تاركةً تلك القطرات تسيل على جلدها... شعرت ببعض الراحة، كانت بحاجة إلى ذلك..

للحظة، تحوّلت البرودة التي تسري بعظامها إلى ألمٍ طفيف، لفّت الشالَ الذي كانت تغطي به كتفيها على كامل جسدها، وشعرت بقطرات حارّة على وجنتيها، لمستها فإذْ بها دموعها نزلت متمرّدة.. جففت وجهَها بطرف قميصها، أشفقت على نفسها من هذا الألم، ومن سخرية القدر، ومن هوانها أمام، ومن، تراكم الأحاسيس المتكومة داخلها.

تذكّرت هاتفها فأخرجته من جيبها، ومسحت على شاشته، فوجدت عدّة اتصالات من خالتها وسلمى ومجد.. توقّف نظرها عند اسم مجد وصورته المرفقة باسمه على الشاشة.. كان وجهه طفوليًّا بريئًا تظهر عليه الطيبة والدماثة.

هتفت: «مجد.. لا أدري كيف ستسير علاقتنا الآن!! فقط كنْ على يقين أنّني لا أريد لك الحزن أبدًا».

همّت بالذهاب إلى سلمى، أكثر مكان تجدُ فيه السلام في هذه الدنيا..

التفتت فإذْ بها أمام ذلك الطيف مجددًا.. اضطربت وكادَ قلبها يقفز من صدرها..

اقترب منها، ولمس شعرها:

- لقد بللت بالكامل.. ستمرضين.

تجمّدت في مكانها غير مصدقة.. سقط هاتفها من يدِها دون أن تشعر به، وظلّت تنظر إليه دون أن تنزل عينيْها عنه.

أمّا هو، فكانت فرصته ليتفرّس في وجهها الفاتن.. رأى فيه عالمًا لا نهاية له.. مزج بين ملامح أنثوية حنونة وملامح طفولية شقية.

انتابته رغبةٌ عنيفة في أن يضمّها إليه ليطفئ شوقَ السنوات الضائعة، ويداوي- بحضنها- الألمَ المستبدّ بجسده وروحه، ويقتل برائحتها رائحة الغربة التي لا تزال في رئتيه، وطاوعته جرأته فاقتربَ منها وجذبها إليه بسرعة حتى أنّها لم تشعر بنفسها إلّا وهي بين ذراعيه.. وبقواه الخائرة اعتصرها وقد غمر رأسَه بين خصلات شعرها الذهبي يتنفّس أريجه.. وتوقّف بهما الزمن في تلك النقطة...

قال في نفسه: أريدك يا جنان، أريدك رغم الوجع ورغم التعاسة ورغم الألم.. أنتِ الأمان الذي أحتاجه.. أنت النور الذي سيقاوم عتمتي.. لا أريد أن أؤذيك، لكني لا أستطيع أن أحميك مني وقد فقدت السيطرة على نفسي أمامك.. أنجرف إليك بقوة كلّما حاولت أن أبتعد.. سامحيني..».

استسلمت له.. غرقت في عشقه مجددًا، كان قلبها يصرخ داخلها: «كيف فعلت هذا بي؟ أي قدرة لك في جعلي أخضع لك تمامًا؟ أنا أحبك يا أحمد.. حبًّا لم تزعزعه الأيام، ولا الآلام.. باتت حقيقته أوضح من النهار بعد أن كدت أنجح في إيهام نفسي بالعكس.. عدتَ لتقلب حياتي رأسًا على عقب.. أهذا قدري؟ أن تباغتني أمواجُه وتندفع في عنف بعد كلّ لحظة سكونٍ أخالها أبدية؟ أنت بلائي يا أحمد.. بلائي الذي لا يتوب».

وعاد الحبّ المزمن من غفوته لينفجر من جديد.. عاد قويًّا بعد سنوات الغياب كالموج جارفًا معه كلّ شيء، ومغيرًا مجرى الأحداث..

همس في أذنها:

- أحبّك يا جنان، أكثر من أي شيء في هذه الدنيا.. البعد عنك يقتلني.. إلا الفراق أرجوك.. فلتفعلي بي كلّ شيء إلا الفراق».

أبعدها عنه ليرى وقع كلامِه عليها، رأى في مقلتيها مزيجًا من الخوف والألم والحرمان، أردف:

– سينتهي.. لا تخافي.. سيمرّ كلّ هذا، وسنجتمع للأبد».

أجابت:

– أنا تائهة.. ما عاد بوسعي أن أفهم، لا أعرف حقًّا ماذا أريد، أو حتى ماذا أفعل».

عادت إلى وعيها قبل أن يجيبها، وصاحت فيه:

– لماذا عدت؟ أنتَ قتلتني بخيانتك.. أنت تركتني في غمرة حزني.. أنت لا تعلم ماذا قاسيت بهذه الدنيا وماذا رأيت من عذاب!!

استجمعت قواها، وأكملت:

– أنا لم أعدْ عذراء.. أتسمع؟ لقد انتهكوا جسدي، مازالت آثار وحشيّتهم عليه، أعلم أنك لن تقبل، نعم.. أنت لن تقبل، أليس كذلك؟ والآن ارْحل للأبد ودعني.. قل لي لا أريدُكِ.. قل لقد كرهتك.. قل قد عفتَ جسدي.. هيّا قلها؛ لن أغضب، صدّقني.

نظرت إليه لترى ملامحه ساكنة.. لم يبدِ أي تعجب.. أتراه يعلم!؟

– أنا أعرف.

أذهلتها إجابته وبروده، أكمل:

– أعلم بكلّ ما مررت به.. كنت أسابق الزمن لأعود إليك.. ربما لم أكن بجانبك جسدًا لكني كنت كذلك روحًا وقلبًا، سنمحو تلك الأيام معًا.

شيء ما بداخله يقول له: كاذب.. أنت تكذب.. عدت من أجل نفسك.. عدت لتنقذ نفسك وتحطّمها.

تجاهله، وأخذ يمسح دموعها..

هي لم تصدّق.. أحست أنها أحبّته أكثر، وأنها ظلمته..

تذكّرت مجد؛ فدفعت يده، وقالت:

– لقد فات الأوان، قدرنا أن لا نكون معًا، قد تأخرت يا أحمد، فلتذهب؛ لن أحتمل عذاب الضمير، هذا الحبّ قدره أن يُدفَن.. ارحل.

تركته وذهبت، هَمّ باللحاق بها، لكنه يعلم أنها لن تستجيب له.. رأى هاتفها لا يزال ملقًى على الرمال، أخذه واتّصل بنفسه، ثمّ محى رقمَه، ولحق بها ليعطيها إيّاه..

أخذته لتضعَه في جيبها بارتباك، ونظرت له باستعطاف:

– أرجوك يا أحمد، لا أريد أن أراك مجددًا، احترمْ قراري.. وداعًا.

توارت عن نظره، تنهّد بقوة:

– لن أتركك، مستحيل.. أنتِ لي جنان، سأفعل المستحيل لنكون معًا.

مجردة من أي أمل، عارية من أيّ معالم الحياة، طرق باب سلمى، فتحت سلمى لتجدَ ذلك الوجه الذي تعذّبت من أجل أن تعيد له ابتسامته؛ عابسًا مرة أخرى بعد أن أنار حياتها بجمال ضحكته، فزعت وقالت:

– جنان، ادخلي حبيبتي..

جلست إلى جوارها تحاول حثّها على البوح، لكن بلا جدوى.. اعترتها شفقة موجعة بها.. صارت روحًا لروحها وقلبًا لقلبها، ولا تحتمل أن تراها حزينة:

– جنان، أرجوك لا تتعبي قلبي، تعلمين أنني أفعل المستحيل مقابل مساعدتك، أخبريني ما بك!؟

– السعادة غادرتني بلا رجعة، أنا محبطة.

– كلا، أنت أكثر مَن يستحقّ السعادة، أخبريني هل تشاجرت مع مجد؛ لأني وجدت اتصالاته أكثر من مرة بعد عودتي من العمل!!

رأت أن كلامها زاد من ألمها. لم تدرِ ماذا تفعل لتجعلها تتكلّم؛ فقرّرت الاتصال بمجد، ولمّا أخذت هاتفها سألتها:

– بمَن تتّصلين؟

– بمجد. سأعلم منه هو ما دمت لا تتكلّمين.

– لا تفعلي.

وأخذت منها الهاتف وأغلقته.. تعجّبت سلمى لتصرّف جنان، وقبل أن تقول أيّة كلمة، قاطعتها:

– لقد عاد أحمد.

تسمرّت سلمى بمكانها، وتغيّرت معالم وجهها إلى الذّهول التام، وعجزت عن الكلام، فأكملت جنان:

– لم يذهب إلى عائلته، جاء ليراني أولًا، لقد طلق زوجته بعد وفاة ابنه، قال إنه لم ينسني، إنه يحبّني وعاد لأجلي.. أنا أحبّه يا سلمى أكثر من أي شيء في هذه الدنيا، لم تستطعِ السنين ولا المصائب نزعَه من قلبي، ولا أريد أن أظلم «مجد» بعد كلّ ما فعله من أجلي، أنا أختنق يا سلمى، ولا أدري كيف أخلص من هذه الحيرة!!.

صمتت، لم تدرِ سلمى بماذا تجيب، فقط أخذت تربتُ على يدها بيدٍ وتمسح على شعرها بيدٍ أخرى:

– جنان، تعلمين جيدًا مكانتك عندي، أنت ضوء عيني ونبضُ قلبي؛ لذا إن ما يهمّني حقًّا أنْ تكوني مطمئنة وسعيدة، سأضع أمامك كلّ الاحتمالات، فالعاطفة قد تحجب الحقيقة.. أنا لا أعرف أحمد، لكني أعرف «مجد» جيدًا، وكان بإمكاني تكوين صورة عن أحمد مِن حديثك عنه سابقا.. حبيبتي، إن الرجولة أخلاق وشهامة لا مجرد كلمات.. ستدركين هذا مع التجربة. بالنسبة لأحمد، فقد ارتكب في حقك خطأ كبيرًا، يكفي أنه تركك من أجل مصلحته، لا مبررات أبدًا لتصرفه، لو كان تزوج من أجل المال فهو لم يعرفك قط، لم

يعرف جنان التي لا يهمّها كلّ ما هو ماديّ، وإنْ كان قد تزوّج لأمر آخر مهما كان.. فقد خانك وهو يعلم كم ستتألمين لذلك.. يعني أنه لم يراعِ شعورك، ومَن لا تكون مشاعرك خطًّا أحمر له فهو لا يستحقّك، أمّا مجد فيكفي أنه لم يحبّ غيرك، وأخلص لك طوال العمر، ويعلم أنك لست له حتى أنه لم يحاول التفريق بينكما، وكان بإمكانه ذلك.. جنان، لا تخسري «مجد» ولا تحزنيه من أجل شخص لا يهمّه إلا نفسه.

– أنا لا أريد ذلك حقًّا.. أنا لم أتمكّن من نسيان أحمد رغم الجرح الذي خلّفه بروحي.. ما أشعر به نحوه شيء مختلف تمامًا.. في حضوره يتلاشى الكون، ولا يبقى أمامي سواه، ولمّا يحدّثني أشعر كأن طيور العالم ترقص داخلي.. معه أكون في سعادةٍ لا توصف، نوعٌ من الجنون.. فوضى عارمة من الأحاسيس الجميلة تعتريني لا يمكن وصفُ اللحظات التي أقضيها معه، لكن مع مجد لا أشعر بهذا، صحيح أني أشعر معه بالأمان والطمأنينة.. لكن لا أكنّ له مشاعر مختلفة.. تلك التي تجمع كلّ حبيبين.. هو حتى لم يلمسني يومًا، لم يمسك حتى بيدي وقد لا تصدّقين أنه لم يقل لي.. حتى أحبّك.. مشاعري نحوه لا تتجاوز الأخوّة، أرجوك افهميني يا أمّي..

– أنا حقًّا أفهمك يا صغيرتي، سأخبرك أمرًا، أتعلمين أن حكايتك تشبه حكايتي كثيرًا؟

– طليقي، أنا أحببته بشدة، وعرفت معه كلّ تلك الأحاسيس التي تنتابك نحو أحمد، وهو تركني أيضًا مثلما أخبرتك، خذلني.. وعمر كان الوحيد إلى جانبي طول تلك المدة، ولمّا طلب مني الزواج ووافقت عاد إلى حياتي من جديد، عاد يعتذر ويبرّر تركه لي وغيابه لمّا توفّيت نور. كان شيء ما يجرفني نحوه، كدت أرضخ له وأسامحه دون مبالاة بمشاعر عمر، حتى أنني شككتُ في مشاعري نحو عمر.. لكن لا.. لم أقدر على جرحه؛ لأنه لا يستحقّ هذا.. الآن، أشعر بالخجل الشديد في نفسي كلّما تذكّرت أنني كدت أتخلى عن عمر من أجل الآخر، تريّثي جنان.. اتبعي ضميرك، ولا تستلمي لعواطف، قد تتحوّل إلى عاصفة قاتلة فيما بعد.. قد لا تستطيعين التحكّم بمشاعرك، لكن يمكنك إخفاءها حتى تنتهي.

– ولكنّ أحمد ليس مثل طليقك؛ أحمد كان إلى جانبي لمّا تركني والدي، ولمّا مرضت أمّي ولمّا توفّيت.. ربما قد ظلمنا أحمد يا سلمى.. هو لا يعبّر عن مشاعره ولا يبرّر لأحد، لكني أكثر مَن يعرفه.. قلبه رقيق وطيب.. كنت أظنّ أنّه نسيني وأحبّ غيري.. لكن هو فقط أراد أن يصنع مستقبله مثل أي شاب في عمره، ولو أنّ طريقه خاطئ إلّا أنّه لم يرتكب جرمًا يستحقّ منّا معاقبته.. لو ترينَ نظرة الضعف والندم في عينيه.. ما الذي فعله ليستحق هذا؟ أعلم أنّ مجد أحبني ولا يستحقّ أن أجرحه، لكن أحمد أيضًا أحبّني، وزواجي بمجد سيظلم ثلاثتنا.. في النهاية أحمد عاد لأجلي.

كانت عيناها تلمع أكثر وأكثر وهي تتحدث عنه.. لم ترها سلمى هكذا منذ عرفتها، أدركت بفطرتها أن حبّ جنان لأحمد عميقٌ وصادق بقدر ما تدرك أنّ هذا الحب سيحزنها كثيرًا. اقتربت جنان نحو سلمى أكثر، وأمسكت بيدها، وتحوّلت نظرتها إلى الاستجداء:

- ليس لي غيرك، ساعديني يا سلمى، أرجوك.

أشفقت سلمى على جنان كثيرًا، وبوجهها الهادئ الرقيق كأنه من عالم الخيال، وعينيها الصافيتين كأنهما لم يريا شرًّا قط، وبابتسامتها الدافئة كأنها سحر لإسعاد البشرية أجابتها:

- أنا دائمًا إلى جانبك يا جنان، لو تركك كلّ العالم لن أتركك صغيرتي، فقط طبقي ما أقوله لك.. لا تلتقي بأحمد الآن، تجاهليه وتجنبيه قدر المستطاع، ولا تدعي «مجد» يلاحظ عليك أي تغيّر، ودعي الأمور تسير حسب القدر.. الزمن سيداوي كلّ شيء، مع الوقت سيأخذ كلّ شخص دوره الذي كتبه الله له.. المهم ألّا تظلمي أحدًا، والله لن يظلمك أبدًا.

عادت إلى منزلها وقد أحسّت براحة عميقة وسكينة لتحدثها مع سلمى.. قبل أن تخلد للنوم خرجت إلى شرفة منزلها.. كان القمر مكتملًا، دغدغ رفاهة حسّها، تطلّعت إلى السماء، ودَعَت: «يا الله، فلينته هذا الكابوس». وأردفت بيقين كأنه يسمعها: «فلتبتعد يا أحمد، أرجو ألّا تعود، لن أستطيع

مقاومتك.. قد أخسر من أجلك العالم، إلّا ثقة سلمى يا أحمد.. لن أتحمل خسرانها مهما كان السبب، ارحل كما رحلت يومًا حينما افترقنا بين الدموع والحنين، فليكن كذلك هذه المرة».

وغرقت في نوبة بكاء مُميتة، بكت الماضي بكلّ ما فيه.. عادت صورٌ قديمة مدفونة في مقبرة الأحزان، تتراقص أمامها في أكفانها كالأشباح.. زارتها آهات الماضي المكلومة، فبكتها من جديد، بكت موت الأحبة، بكت قسوة الظروف وخذلان والدها، بكت بوجع الكهرباء وجفاء العقاقير والأدوية وبرودة الحيطان والوحدة القاسية والحاجة والفقد وكل الماضي الذي استيقظ فجأة منفجرًا كالبركان تاركًا حمَمه تكوي روحها بلا شفقة.

ارتمت في سريرها كالجثة الهامدة بعدما جفّت دموعها، وظلّت تنظر إلى السقف الذي بدا لها قريبًا جدًّا كأنه سيطبق عليها ويخنق أنفاسها إلى الأبد، وتمنّت ذلك.

لم يستطع أحمد النوم.. ألم الروح والجسد أطارا النوم من مقلتيه حتى المسكّنات والحبوب لم تستطع تهدئته.. نظر إلى كلّ الأدوية التي احتلّت كلّ مكان فارغ في غرفته، لعنها.. وبعنفٍ شرع يرمي بها على الأرض.. وهو يبكي كالثكلى.

فجأة، رأى شبح الموت يغمز له من بعيد في سخرية، احتقن غضبًا، وصرخ:

- لن أموت، لن يهزمني شيء حتى أنت.. أنا لا أستحقّ هذا، لماذا يا الله؟! لماذا كتبت لي أن أحتضر في رحم شبابي؟!.

واستسلم بحسرةٍ ممزوجة بوجعٍ رهيب يعتصر عظامَه، واستولى عليه شبح التفكير، ورأى الوجه المحبّب إلى قلبه بين عينيه، قمر يضيء ليله الكئيب «ليتكِ هنا يا حبيبتي، ليتكِ إلى جانبي الآن يا جنان».

اعتراه الشوق مجددًا، أراد أن يراها.. أن يحتضنها مرة أخرى ويبكي على كتفيها.. لمعت عيناه ببريق مَن صمّم على اختيار طريقه.. «لقد ظلمني القدر مثلما ظلمك يا جنان، نحن لم نخترْ ما صرنا إليه، لذا فلنواجه قدرَنا معًا، وحبنا سيفنى أمامه كلّ عذاب، فليكن ما يكون، أنا لن أتخلّى عنك، سنكون معًا مهما حصل».

أخذ هاتفه وخرج من البيت، وفي طريقه أخذ يكتب لها رسالة.. أرسلها وبقي ينتظر الردّ الذي سيحسم مصيره:

- الشوق الذي ظهر لي جليًّا في عينيك حال رؤيتي رغم محاولات التظاهر باللامبالاة الفاشلة لك؛ بدّد كلّ خلية كبرياء في جسدي.. مِن أين أتيت بكلّ تلك القدرة العجيبة على اختراق حجب كبرياء رجل لم يحن يومًا لمخلوق، وها أنا ذا أعترف أنّ محاولات نسيانك باءت أمام طيفك الذي يحاصرني كلّ ليلة منذ افترقنا.

أعترف.. هذا النابض على يساري لم تعتريه منذ فراقك أية رغبة.. أية نبضة متمردة.. أية مشاعر، وكأنه ما خلق فينا سوى ضخ الدم وعشقك، ولمّا رأيتك أخيرًا غير الدم مساره، وتداخلت عروقي كأنما تعبث بي لمّا وقعت عيناي على عينيْك.

تعالي إلي ولا تتعالي علي.. كفاك تصنعًا، فما عاد لنا وقت نمضيه في التمثيل، وقد سقطت أقنعتنا منذ أوّل عناق بعد غياب مُضن.. جنان، ما رأيتني قبل وقد تعرّيت من كلّ أستار نفسي التائقة إلى الحياة مثلما تعرّيت أمامك، أنت ولمّا عزمت على العودة إلى قوقعتي والابتعاد، خرجت روحي من جسدي ووقفت خالصةً من كلّ شيء، أمامك تلتمس مناجاة روحك.

لقد أحببتك منذ زمن طويل، منذ أن جئت إلى منزلي طفلةً حسناء بريئة، واستسلمت لهذا الطارئ الغريب بعد صراع عقيم، شاهدت فيه مخاض قسوتي وكبريائي وجفائي، وكل تلك الصفات التي رافقتني وذهبت هباءً أمام جبروت حنانك وطيبتك التي حوّلتني إلى طفلٍ ليس له موطن سوى حضنك.. فكم أودّ أن أسجن فيك ولو دهرًا، وأبكي نفسي ملء كلّ ما رأته نفسي بعدًا عندك، تواسيني خلجات أنفاسك اللامنتظمة على كتفي، وأذوب فيك فتكونين أنا وأكون أنت.. فننادي بعضًا «يا أنا» روحًا في جسدين نصير.. فلا الموت يفرّقنا ولا العدم يُفنينا.. «يا أنا».

ووقعت جنان في نوبةٍ جديدة من نوبات الذهول، وأحاط بها الظلام.. ظلام يزحف من تحت قدميها حتى وجهها.. هل كتب عليها كلّما أقامت حصنًا حول مشاعرها؛ أن ينهدم الحصن فوق رأسها!؟

عادت تقرأ الحروف بتروٍّ، وبدأ خيالها يستيقظ.. رأته أمامها بابتسامته الفاتنة ووجهه الوسيم، بقامته الفارعة ينظر إليها تلك النظرة التي تُربكها وترديها أسيرة في شراكه.. أحست أنها تريد أن تحادثه، أن تمازحه وتشاكسه كما تفعل دومًا.. أرادت أن تراه وتخفّف عنه عذابه ووحدته.

لم تدرِ ما تقوله.. أتجيب؟ وبماذا ستجيب؟ هل تحلم؟ لا.. دقات القلب هذه ليست حلمًا، لا يمكن أن تكون سوى واقعٍ.. قرّرت أن تتجاهله، لكن هذه النار التي أضرمها داخلها مِن المحال أن تتجاهلها، لم تقاوم لهفتها إليه، وأجابته مصطنعة الجفاء:

– مِن أين عرفت رقمي؟

كاد ييأس من الردّ، ويعود أدراجه لولا أنّ شاشة هاتفه تضيء.. ويضيء معها قلبه..

– يمكنني أن أعرف عنك أي شيء؛ لأنك تسكنين روحي، حتى أنني الآن أسمع نبضاتك المتسارعة.. ارتجافك.. وحمرة الخجل التي تكتسح محياك.. أرى ذهول عينيك.. وذبول أطرافك، أرى روحك المحتارة بين الحياة

والموت.. الحياة بالخروج من واقعك، والتحرّر من قيود التقاليد والواجب الذي يرضي غيرك ويحطّم كيانك والموت في زنزانة اختارها لك مَن حولك وزجّوك بها مؤكّدين أنّ فيها سعادتك وخلاصك.. اختاري مصيرك بنفسك يا جنان، أنتِ مَن تدركين أين.. ومع من.. وكيف تجد الفرحة سبيلًا إلى ذلك القلب اليائس!!.

واشتدّت بها الحيرة، واشتدّ بها العذاب، فدفنت رأسها على وسادتها، وقد قبضت على خصلات شعرها من خلف تشدّها بعنف، ولمّا تيقّنت أنّ هذا لن يبرد السعير داخلها؛ نهضت دون أن تشعر، ووضعت الوسادة بقوّة على فمها وأخذت تصرخ.. تسرّبت إليها بعض الراحة، ثمّ تفطنت أنها كانت تفعل هذه العادة القديمة.. أيام مراهقتها لمّا تتشاجر معه.. زوبعة من الحنين هزّت ضلوعها واجتاحتها، رغبت في رؤيته ولو من بعيد، هكذا بلا مبرر بلا سابق إنذار يعصف الشوق بالقلب الصغير.. يعتصر وتينَه.. لم تمضِ برهة حتى عاد ضوءُ هاتفها يشعّ، ولكن هذه المرة لم تكن رسالة بل كان رقمُه وهو يتّصل، ظلّت تنظر حتى انتهى الاتصال.

شيء ما شلّها عن الحركة، ولم تقدر على الإجابة، انتظرت علّه يعاود الاتصال، لكنّه لم يفعل، مرّت ثوانٍ ثمّ دقائق، لكنه لم يتصل «آه يا أحمد! كم من الأحاسيس مرّت في هذه الليلة، أنت وحدك مَن تعيث بأعصابي إلى هذه الدرجة».. ثمّ أضاء هاتفها من جديد، أعلن عن رسالة، فرقص قلبُها طربًا.

– آسف يا جنان، آسف على الإزعاج، أظنّ ما عاد لي مكانٌ في حياتك، أعدك أنك لن تريني مجددًا أبدًا.. وداعًا.

– لا.

انتبهت أنها صرخت، ودَعَت أنْ لا يكون وصلَ صوتها إلى خارج غرفتها..

قامت متوترة تمشي وتجيء، تعبث بها الظنون

– ماذا فعلت؟ ماذا لو عاد إلى فرنسا، ولم أتمكّن من رؤيته مجددًا؟!

وخيّل إليها أنها هي مَن خانته فعلًا، وتخلّت عنه دون أن تعرف أسبابه.. هو لم يخطئ.. هو فقط أراد صفقة يضمن بها عيشَه بسرعة، هو فعل هذا من أجلها وحدها، من أجل أن يتزوّجها قريبًا..

وبلهفة مَن يلاحق الحياة هربًا من الموت، اتصلت به.. جاء صوته ضعيفًا حزينًا مخترقًا كيانها..

– اشتقت إليك.

جمعت قوّتها، وأجابت:

– وأنا أيضًا.

مرّت ساعة أو أقلّ ولا تدري وأنفاسها تضطرب على وقع كلماته، وانتهى بها الأمر أنْ تسلّلت إلى خارج البيت لتجده على عتبة بابها مُعلنة استسلامها، وألقت برأسها على كتفه: "أنت من أريد.. أنت قدري واختياري».

مرّت الأيام سريعًا.. رمّمت فيها نفسها، ولملمت شتات قلبها، وعرفت حقًّا ماذا تريد. اتفقت مع أحمد على ترك الأمر سرًّا بينهما، رجتْه أن يتفهّمها حتى يحين الوقت الذي يظهران فيه معًا أمام الجميع.. لم يرقْه الأمر.. هو الذي اعتاد أن يستأثر بكل ما يريده علنًا أمام العالم.. شاء مَن شاء وأبى مَن أبى.. رضي الآن أن يكون الجزءَ المخفي، السرَّ المعتم في حياة جنان بعد أنْ كانت له أمام كلّ الدنيا.

لم يبال كثيرًا؛ فقد صارت كلّ حياته سرًّا حتى وجوده في هذه الدنيا سرٌّ ينتظر الأوان ليعلن عن نفسه.. لكن ليس قبل أن يسترجع ما جاء مِن أجله للأبد.. «جنان».

كانت هي تحاول أن تبدو عادية، خاصّة أمام سلمى التي تستطيع أن تتوغل داخل أفكارها بمجرد رؤيتها..

لكن تلك السعادة الخفية والعارمة في آنٍ واحد التي تجمعها إثر الساعات التي تمضيها مع أحمد بعيدًا عن الأعين، سرعان ما تتحوّل إلى الندم وتأنيب الضمير كلّما انفردت بنفسها ليلًا وقت نومها.

الندمُ من الأكاذيب التي تختلقها كلّ مرة للخروج من البيت.. الندم من كذبها على سلمى وخيانتها لمجد.. لا تريد أن تعترف حتى في داخلها أن تخون «مجد»..«الخيانة» هذه الكلمة تفجّر فيها براكين تستعر حِمَمُها.. تحترق

أعصابُها فتبكي بألمٍ حتى تحسّ بأنها عاقبت نفسها بما يكفي.. فتستسلم للنوم مرهقة وقلبُها يصلي لله أن يسامحها.

تعاتبها نفسها كلّما وقفت أمام مرآتها تتجهّز للقاء أحمد.. توشك دموعها على النزول فتحبسها في تمرّد.. «كفّي عن لومي فما عدت أطيق.. أنا لا أخون أنا أحبّ.. فقط أحبّ ومنذ متى كان الحبّ ذنبًا يا نفسي ما مللت الحزن؟ فلنسعد ولو قليلًا ولو سعادة مسروقة».

نزلت مسرعةً دون أن تتناول فطورها.. استوقفتها جدّتها التي لم تعتدْ تذوّق لقمة دونها.. فاعتذرت متعلّلة بالعمل الذي لا ينقطع.. قبّلت يوسف الذي أشاح بوجهه عنها محتجًّا على قلّة اهتمامها به هذه الأيام، فابتسمت له وحملته محاولة إرضاءه: «اعذرني على تقصيري يا صغيري، سأعوّض لك كلّ هذه الأيام، أعدك».

في طريقها إليه كانت تسابق الزمن فارّة إليه من أنّات ضميرها، حيث تنسى في حضوره العالم.. انتبهت أنها لم تتّصل بمجد، في كلّ مرة يتصل فيها لا تستطيع الإجابة، ترسل إليه رسالة تخبره فيها أنها مشغولة..

يطلب منها أن تتّصل به ما أن تنتهي فتنسى، حتى سلمى نهجت معها نفس الأسلوب.

توقفت فجأة، همّت بالرجوع أن توقّف كلّ هذا، شيء ما يهمس لها.. عودي إلى وعيك، فلتستفيقي قبل أن تخسري كلّ شيء.. تضع كلتا يديها

على أذنيها كأنها تسدّهما عن سماع ذلك الصوت، ولكنّه داخلها يعلو ويعلو، فتراءت لها سلمى، مجد، يوسف، وخالتها تتساءل: ماذا لو تركها الجميع، لو علموا ما تُخفيه سلمى ستفقد ثقتهم بها، أحسّت بغصّة بحلقها، مجد سيتألم كثيرًا، ولن يسامحها أبدًا، خالتها ستستصغرها، جدّتها ستأنّبها لأنها تحبّ «مجد» كثيرًا، حتى يوسف الذي تعلّق بمجد ستقتلها أسئلته كلّ يوم.. لماذا تخلّيتِ عن عمّ مجد؟!

الصوت يصل عميقًا أكثر، تشعر بالغثيان، الدنيا تدور بها، تمسك رأسها بكلتا يديها.. «لا أريد أن يحدث هذا»..

تفقد توازنها، تحاول الاتكاء على أحد الأعمدة، يراها أحمد وهو قادم من بعيد، أسرع إليها:

– جنان، ما بك؟ هل أنت بخير؟!

– أحمد، أنا لست بخير.

وسقطت بين يديه، جعلها تتكئ على كتفه:

– تماسكي، سآخذك إلى المستشفى الآن.

– لا.. أحمد، لا أريد المشافي، خذني إلى المنزل.

– حسنًا.

أكملت: «إلى منزلك».

أحسّت بتغير وجه بصعوبة، قالت:

– لا أريد أن يروك معي، فلنذهب إلى منزلك.

أوقفا سيارة أجرة، واتّجها إلى شقّته.

ساعدها في الجلوس على الأريكة، رأته مضطربًا خائفًا، أسرع إلى خزانته، أحضر لها مسكّنًا.. ناولها إيّاه بيديه، وجعلها تشرب الماء، وأخذ يمسح على شعرها، عاد إليها توازنها، نظرت إليه بامتنان:

– لا أدري.. هل الدواء من شفاني أو لماستك!!

ابتسم، ودون أن يجيب، عاد يتأملها، وقال:

– جنان، ما الذي تغيّر؟! حالتك لا تطمئن بتاتًا.

– مرهقة أنا يا أحمد، تائهة، أريدك.. ولكني لا أستطيع أن أتقدّم، لا يرضيني هذا الوضع، وأخشى المجازفة، كلّما فكّرت في احتمال أن يكتشف أحدٌ علاقتنا.

– ربّما حان الوقت لأتكلم، أنا لا أحتمل أن نظلّ هكذا، أحسّ أني سارق، وأنتظر أن أسرق من الزمن لحظاتٍ معك، احرص خلالها أن لا يراني أحد، إلى متى ستظلين أسيرة الضعف، قاتلي من أجل الحياة.. من أجلنا.. أنت لا

ترتكبين ذنبًا لمّا تختارين مصيرك، لا أدري لماذا تهتمّين لمشاعر الجميع ونظرتهم لك وتنسين مشاعرك!!

– أحمد، لست خائفة من أحد، أنا فقط أرى فضلهم عليّ كبيرًا، أشعر تجاههم بالمسئولية، خاصّة مجد.

شعر بالدماء تفور في عروقه كعادته كلّما سمع اسم مجد ولو للمرّة الألف، تمالك نفسه لكن نبرتَه لم تخلُ من غضب..

– مجد يعلم أننا نحبّ بعضنا من زمن، هو من أخذك مني.. والآخرون إنْ كانوا حقًّا يحبونك سيفرحون لرؤيتك سعيدة.. جنان، حان الوقت لتقولي كلمتك الأخيرة، أو أنا مَن سيخبر «مجد».

– لا أحمد، بقيت أيام قليلة على سفره، عندما يسافر سأتصل به وأخبره، هكذا أفضل لكلينا، سأعفي نفسي من مواجهته ورؤيته حزينًا، وأعفيه هو مِن رؤيتنا معًا.

نظر إليها وقد تحوّلت نظرته إلى العطف:

– كما تريدين. المهم أنْ تكوني مرتاحة.

ثمّ أمسك بكلتا يديها، وقال:

– بعدها بالضبط سنتزوج.

أحسّت بدبيبٍ كدبيب النمل في قلبها، لمعت عيناها بقوة، وظهر عليها الحماس، ابتسمت ثمّ تحوّلت ابتسامتها إلى ضحكة فاتنة، أحسّت بروحها تخرج من جسدها وتعود وقد نفضت عنها كلّ همومها واستقرت في جسدها خالية من كلّ شيء إلّا العشق.

اقترحت عليه الخروجَ للتنزه إذ تحسّنت حالتها، فأجاب:

- لن نخرج، دعينا نبقى هنا اليوم، سنطبخ شيئًا ما معًا.

وسنشاهد فيلمًا هنا مثلما كنا نفعل في الماضي، لنُعِد أيامنا الجميلة؛ لأنني أشتاق لها كثيرًا..

- كانت أجمل أيامي يا أحمد، ولم تغادر ذاكرتي مطلقًا.

دخل مجد منزله جريًا، ملامح الفرح تتراقص على وجهه، وصل إلى غرفته، غيّر ملابسه بسرعة، حمل ظرفًا بنيًّا كبيرًا، وخرج مسرعًا إلى سيارته، اتّصل بجنان عدّة مرات متلاحقة، ولايزال الرقم خارجَ التغطية..

- غريب!! ما الأمر يا ترى؟

لاحظَ أنها منذ فترة لا ترد على اتصالاته إلّا نادرًا، وحتى صوتها لمّا تجيب نبرة جافة لم يفهم مغزاها، لكنه نسبها إلى تعبِ العمل كما كانت دائمًا تقول..

فكّر أن يتصل بهاتف المنزل، فهو لم يعتدِ الذهاب إليها دون خبر مسبق، أجابته جدّتُها بعفويتها المعتادة، أخذت تلومه على عدم إخبارهم باكرًا كي يجهزوا له عشاءً لائقًا بحضرته كما قالت، وقبل أن يسألها عن جنان سابقته هي بغريزة الأمّ بدأت تشكو له غياباتها المتكرّرة عن الفطور والغداء.. عودتها إلى المنزل في وقت متأخر.. قلة كلامها.. وشرودها الدائم، ثمّ أضافت: يا بني لقد أصبحوا يتعبونها كثيرًا هذه الأيام، فلتحاول إقناعها بتركه، والبحث عن عمل آخر، الأمر أصبح لا يطاق.

- حسنًا جدّتي، سأفعل، لا تقلقي أنتِ.

زفر بقلق، وشعر ببعض الحيرة، هو الذي يعرف طبيعة عمل جنان الذي يمكنها حتى أن تنجزه بالبيت..

- فليكن المانع خيرًا يا ربي.

كانا قد افترشا الأرض أمام التلفاز وألقيا برأسيهما على الأريكة وراءهما وكوبا شاي ساخنٍ يشاركانهما الوقت الذي مرّ بسرعة بعد طعامٍ جمع لمساتهما معًا بعد انتهاء الفيلم الذي تابعاه بشغفٍ كأنهما خاليان من أيّ همّ، نظر هو إليها.. لا يصدق الآن أنها بجانبه، نظر إلى وجهها الجميل، وقد وضعت عليه بعضَ المكياج لأجله، فمَن يدري مَن يزيّن الآخر، خضّبت عينيْها بالكحل الذي نام وسطهما بهدوء وامتنان، اعتلت "المسكرا" رموشها بغرور مَن يعتلي

عرشًا، وجنتاها صفيحة بلّور تتوسطهما بعض الحمرة المائلة للأرجواني كقرص شمس تغيبان في خجل، وانتشر بعض نقاط النّمش كالنجوم في وجهها، فقط اجتمعت الشمس والنجوم معًا.

لمعت عيناها فجأة، لمعة تشي بنزول دمعةٍ سرعان ما ابتلعتها، وقالت:

– أشتاق إلى أمي وعمي كثيرًا، أحيانًا أقول لو كان هُما معنا الآن لَما حدث لي كلّ ذلك، ولكان كلّ شيء كما نريد دونَ أن نختبأ من أحد.

– نحن الآن معًا، وهذا هو المهمّ..

اجتزنا الكثير في الماضي، ممرنا بكلّ تلك الصعوبات لم يبقَ إلّا قليلٌ فقط، لا تصعّبي الأمر.

– أنت لا تفهمني يا أحمد، أنا لا أصعّب شيئًا، الأمر ليس كما تعتقد.. لكن ما مرّ بي أفقدني القدرة على المواجهة لّما فقدت الثقة بمَن حولي، هُم لم يتركوني، بذلوا من أجلي الكثير، لقد عدت للحياة بهم ومِن أجلهم..

لهذا لا أستطيع التمرد عليهم، المشكلة أن الجميع يحبون "مجد".. ابتلعت ريقها وأضافت:

– كما يكرهونك ويرون ما حدث بسببك..

أنزلت عينيها كي لا ترى ملامحه:

– يرون أنّك خذلتني مرتين لّما تركتني منذ زمن من أجل العمل، ولّما تزوجت دونَ علمي؛ لهذا لن يتقبلوا الأمر بسهولة.

كان لا بدّ أن يتحدّث ويدافع عن نفسه، وهذا سيدفعه لفتح أبواب الماضي الذي يمزّق شرايينه كلّما تذكره بعد أن أغلق بابه وعاد إليه..

– أنا أتفهمك يا جنان، لكنّني أنا أيضًا ظلمت منذ أن تخرجت، حلمت بدنيا تجمعنا بعد كلّ ما مررنا به، أردت أن نعيش سعداء، أن نتزوج بسرعة لأنقذك من أبيك وزوجته، وأنا على يقين ما كان ليزوّجنا دون أن يكون معي مال، وكان لا بدّ أن يحظى بإفادة مقابل زواجنا. قد تتساءلين لمَ أقول هذا الآن؟ ولكن أنا حقًّا لا أريد أن أذكّرك بالماضي، ولكن لمّا أخذك معه ذهبت بعد تخرجي لأتحدّث معه، لكنّه أهانني، لقد طلب منّي مالًا مقابل زواجنا.

نظر إليها وقد نزلت الدموع، ونزل معها الكحل ملطخًا وجنتيها بالسواد، أكمل:

– لهذا رحلت لتوفير المال بأسرع طريقة، وتعرّفت عليها في مقابلة مع أصدقاء، مع الوقت تعلّقت بي كثيرًا، ولمّا علمتُ أن والدها مالك شركة يحلم الكثيرون بالعمل بها، وهي الوريثة الوحيدة؛ رأيتها صفقة لا تعاد، ولمّا تزوجنا.. أحد أصدقائي لمّا عاد لتونس نشر الخبر.. أمّي جنّ جنونها، وقاطعتني، ولم أستطعِ الاتصال بك لأن أمي جعلت ليلى ومجد يقسمان على عدم الحديث معي، كنت أمنّي نفسي بالعودة بعد أن أجمع المال الذي سيجعلنا نعيش برغد، ففاجأتني بحملها.. كانت تريد أن تربطني بها بعدما

علمت بأمرك، لمّا رأت صورك في حاسوبي خلسة.. كنت أنتظر مجيء طفلي ثمّ أطلّقها وأحضره معي لأنها لم تكن تريد طفلًا، فقد تعمّدت الحمل لتقيّدني بها، وهذا لمّا رأتني مصرًّا على تركها، طلبت مني أخذه معي لهذا تأخّرت في المجيء إليك عندما جاء مجد وأخبرني بما حصل لك.

قاطعته بالذهول:

– هل جاء مجد إليك!؟

– نعم، وإلّا كيف سأعلم.. ألا تعلمين الأمر؟

– لا.. مجد لم يخبرني.

اتسعت حدقتا عينيه:

– لقد جاء إليّ وأنت في المستشفى، أخبرني بما حصل لك، وتشاجرنا لمّا قال إنه سيتزوجك، أخبرته بكلّ الحياة.. جنان، مجد يعلم كلّ شيء، ظننت أنه أخبرك، ورغم ذلك ذهبتِ له ولم تنتظريني!

– منذ ذهابك وأنا أتجرّع المرارة والقسوة بصمتٍ، أمنّي نفسي بعودتك بصمت، كنت أملي الوحيد حتى بعد شفائي، لم أنساك.. حاولت مرارًا ولم أقدر كلّ ما عرفته أنك اخترت حياتك بعيدًا.. حياة لستُ فيها.. فما كان مني إلّا أن مضيت في طريقي مرغمة، لو علمت أنك ما زلت تريدني لانتظرتك طوال حياتي.

لم يتكلم، كان قلبه يخفق ألمًا وقهرًا في آن واحد..

أكملت:

– كيف فعل مجد هذا!! لماذا كذب عليّ؟

بابتسامةِ من ظفر بمعركة كادت أن تودي بحياته أجاب:

– الآن، ليس له مبررٌ، لن أنتظر رحيله، يجب أن أواجهه.

– لا، أنا مَن ستفعل.

كان مجد يمشي جيئة وإيابًا في منزل جنان، ينظر لساعته، يطلّ من الشرفة أحيانًا.. يطلّ من الشرفة يترقب إطلالتها عليه، فقط اشتاق إليها بشدة، بينما ظلّت سلمى تتبادل الأحاديث مع الجدّة والخالة، أتت بدورها لرؤية جنان إذ لم تتمكّن من الاتصال بها، تأخّر الوقت وزادت حيرة القلوب، خيّم الصمت في حضرة الانتظار..

رأى مجد قلقَ الجميع، لا يزال يتصل تحت إلحاح الجدة التي تطلب منه الاتصال مرات في الدقيقة الواحدة، ولمّا يئست المسكينة التمستْ منه أن يذهب لمكان عملها ويحضرها، لمْ يشأ أن يخبرها أنه اتّصل بهم وأخبروه أن جنان أخذت أجازة منذ أسبوع.

تملّكت الحيرة والظنون تفرس بوجه سلمى، يدرك أنهما قريبتان وليس بينهما أسرار، ملامحها غير عادية، هناك أمر تخفيه، لم يستطع التحمّل، ادّعى

أنه يتحدث في الهاتف.. جنان مَن اتّصلت الآن، وقد خرجت من العمل، تبدد القلق إلّا سلمى أحسّت من نظراته أنه اختلق ذلك بنفسه..

- جدّتي.. خالتي، فلتذهبا أنتما للنوم، لقد تعبتما، أنا وسلمى سنخرج لإحضار جنان.

بدتْ سلمى مضطربة، ومحاولتها اليائسة لإخفاء هذا الاضطراب زادت من ثقة مجد بشكوكه حول سرٍّ يجمع جنان وسلمى..

كانت تحاول تلطيفَ الجو وإبعادَ الشك والتساؤل عن مجد، لكنّه ظلّ صامتًا لمهلة يستمع إليها بانتباه غريب، وهي تحاول إضحاكه عبر سردِ مقالب يوسف ومواقفه الطريفة دونَ أن ترتسم على وجهه أية علامةٍ على تقبل هذه الحكايات.. أنزلت عينيها إلى الأرض خشية لقائها بنظرته الحادة التي لم ترها عليه آنفًا أبدًا..

لكن لم تتوقّف عن الحديث.. حتى باغتها بأن تنحى عن جانبها ووقف أمامها، وصوته لا يخلو من رجاء وتصميم:

- سلمى، ما الذي يحدث!!؟

تظاهرت بعدم فهمِ ما يربو إليه..

- سلمى، أنا على يقين أنّ هناك أمرًا ما لا أعرفه يخص جنان، وأنت وحدك مَن تعرفينه.. أرجو أن تخبريني عنه الآن.

لم تعهدْ فيه هذه الصرامة ممّا ضاعف توترها، ولأنها لم تعتدِ الكذب والمراوغة؛ بدأت تتلعثم غير واعية لما تقوله..

– سلمى، أنا أحترمك كثيرًا، وأكنّ لك الكثير من المحبة والاحترام، وأنت تدركين هذا، وجنان أهمّ ما أملكه في هذه الحياة، وأنا مستعدّ لبذل حياتي مقابل سعادتها.. لذا أرجو منك إخباري بما تخفيه جنان عني.

آثرت الصمت، كان الحل الوحيد أمام إصرار مجد واضطرابه المفاجئ الذي ينمّ عن صراع داخله..

هي على يقين أنّ جنان مازالت على صلة بأحمد ممّا جعلها تتغير تجاه مجد الذي أرهقه تغيرها الغير مفهوم.. رفعت عينيها لترى ظنونها واقعًا أمامها..

لم تستطعْ كتمان ذهولها الذي كان أقرب إلى الهلع.. اتسعت عيناها وفغرت فاها.. التفت مجد وراءه ليرى ما أربكها، تجمّدت الدماء في عروقه.. وأحسّ بقلبه ينبض بين صدغيه.. كان الموت في تلك اللحظة أهون عليه من ذاك الموقف.

رآها تقف على مقدمة ساقيها، متعلقة برقبته، حملته ساقاه بوهن إليهما وكأنها تحمل جبلًا.. ظلّ يقترب ساكنًا كسجين حُكم عليه بالإعدام يسير نحو حتفه..

يعدّ خطواته.. كلّ خطوة تقربه لمشنقته تبعدُه عن الحياة أخرى، إلى أن أضحى أمامهما ليتأكّد من ذلك الطيف الذي لم يكن سوى أخيه..

هما.. لم يشعرا به، كانا شبه غائبين عن العالم..

أمّا سلمى، فقد تمنّت لو تبتلعها الأرض ولا ترى هذا المشهد..

ابتعدت جنان عن أحمد، ويداهما لا تزالان متشابكتان ينظران لبعضهما ولم يلتفتا إلا على صوت تصفيق مجد الذي لم يدرِ كيف ولَمَ فعلها!! كيف تحرّكت يداه واجتمعتا أمام صدره ببطء وبدأتا تضربان ببعضهما في بطء.. تك تك تك..

صعقت جنان، عادت خطوة إلى الوراء، وتفجرت عيناها دموعًا دون أن تتحرّك أو تنطق بكلمة..

الظلام دامس.. المكان خالٍ سوى منهم.. الصمت مخيّم ما عدا دقات قلوبهم..

«تك تك تك» كان الصوت يتردّد في رأسها أقوى من طبول العالم أجمع.. ترتعش لموجاته عروقُها وبقوة صرخت فيه:

- يكفي.. يكفي.. أوقف هذا الصوت.

توقّف وبقي ينظر إليها.. وسط صمت أحمد وتقاسيم وجهه اللا مقروءة وذهول سلمى، نزلت الدموع حارة من عينيهما.. مجد وجنان.. كانا ينظران لبعضهما بحرقة..

كانت تعلم أنّ مواجهته صعبة، لكن لم تظنّ لهذا الحدّ.. لهذا الوجع.. والأمر بهذه الطريقة..

أرخى مجد يديه على جانبيه، وأحكم قبضته بقوة كمَن يمنع غضبه من خيانته.. تكلّم فجاء صوته خافتًا فيه حشرجة مروعة:

– شكرًا لكِ قد أهديتني جرحًا يكفيني طوال حياتي.

ارتمت على صدره تضربه وتنتحب:

– لم أرد هذا صدّقني، لم أرد.. لم أستطع إخبارك.. لم أرغب في جرحك.. أقسم لك يا مجد.

قال:

– كان عليكِ مواجهتي.. كنت تستطيعين أن تقولي بكلّ بساطة لم أعدْ أريدك.. لم أستطع أن أحبّك، وسأغادر حياتك بكلّ احترام، وستظلّين بعيني جنان الصادقة الطاهرة.. لا أن تخونيني في الظلام وخاتم خطوبتنا لا يزال في يديك.. لقد خدشت رجولتي ببراعة، وهذا ما لا أستطيع نسيانه أو غفرانه طوال حياتي.

نظرت إلى يديها لترى خاتم خطوبتها لا يزال يحيط بأصبعها.. نزعته ووضعته بجيب سترتِه، وقد تحوّلت نظراتها إلى التمرد:

– أنا لم أخنك.. كنت أنتظر رحيلك كي أخبرك، فكرت فيك قبل أن أفكر بنفسي، لم أشأ لك الألم يومًا.. كنت أقرب إليّ مِن ظلّي، وأعزّ عليّ من الهواء الذي أتنفس.. لهذا عسر عليّ مواجهتك دون حساب لمشاعرك.. لكن أنت كذبت عليّ دون مبالاة لألمي؛ لِمَ لَمْ تخبرني بذهابك له؟ لِمَ لَمْ تخبرني بالحكاية كاملة؟ أنت تعلم كم أحببته! كم انتظرته! وكم تعذبت شوقًا له! ورغم ذلك لم ترحمني.. أحببت نفسك فقط.. أخفيت نصفَ الحقيقة التي كانت تعني لي الحياة.. كان سيعود لي لا محالة، وأنت تدرك ذلك، أنت مَن كذبت ومَن وضعت نفسك في هذا الموقف.

– أنا لم أقل غير الحقيقة.

– كاذب.

صرخ أحمد الذي تقدّم نحو مجد وأردف:

– لقد أخبرتك عن الورطة التي وقعت بها، وأن تبتعد عن جنان و..

قاطعه:

– أخي، أنا أكثر مَن يعرفك ويراك بوضوح، لذا لا تستفزّني كي أتكلّم.

ثمّ ابتسم بسخرية، والتفت إلى جنان:

– أنا لم أكذب عليك يومًا، أنا فقط أردت حمايتك.

ثمّ تركهم وصعد سيارته مغادرًا..

عاد الجميع، لكن لم يذقْ أحد منهم النوم ليلتها.. أحمد لم يمنعه سروره من انتهاء علاقة جنان بمجد من زيارة الهواجس له.. كانت جملة مجد الأخيرة «أردت حمايتك» تتكرّر في رأسه.. يتساءل ممّ سيحميها منه؟ هل يمكن أن يكون قد علم بأمره؟ ثمّ ما يلبث أن يطرد الفكرة غارقًا في تأملاته ناظرًا في مستقبله مع جنان آملًا في السعادة.

سلمى، ظلت طوال الليل تفكّر بجنان ومجد.. المشهد الأخير لا ينزاح عن ناظريها.. رؤيتهما معًا متواجهان باكيان مزّق روحها.. كم كانت سعيدة بهما.. تنتظر زواجهما بفارغ الصبر.. والآن تدعو لهما بأن يجد كلّ منهما السلام في حياته.

بكت جنان طوال الليل، حتى أحمد لم تجبْ على اتصالاته.. كانت غارقة في لوعتها التي لم تجد تفسيرًا لحدّتها.. لا تدري هل بكتْ ألمًا بحالها، أو ندمًا، أو شفقة بمجد الذي لم تغادر صورته ذهنَها؟!!

أحسّت بالضياع والندم على كلامها الجارح له، ندمت على خيانته.. لو عاد بها الزمن لانتظرت حتى تراه وتصارحه، الكلمات التي خرجت في غمرة وجعِه لها تركت خدوشًا في قلبها وضميرها، لن تبرأ حتى تنال عفوَه.

أمّا هو، فكان الألم الأعظم يجثمُ بثقله على صدره، كان يقود سيارته باضطراب.. لا يدري إلى أين؟ نسي حتى طريق العودة.. يقود على غير

هدف.. وضباب الدمع يحجب عنه الرؤية.. توقف فجأة ليجد نفسه في مكانٍ ناء.. ترجّل من سيارته .. يسير ببطء.. فقط يسير وعقلُه مشتت.. لا يستوعب. كان الظلام حالكًا يواسي ظلمة روحِه المقهورة.. وهنتْ ساقُه ووقع على ركبتيه.. نظر إلى السماء.. القمر غابَ بين الغيوم السوداء.. والمكان مُقفِر تحيط به الاشجار لتزيد ظلمته، وأصواتُ الخفافيش وكائنات الليل تغرق المكانَ في الوحشة.. وحشة القبور وهو كان الميّت هناك.. دفن نفسَه بنفسه في قبر الوجع مكفنًا بالخيبة.

لا يدري كم بقي هكذا ينعي حاله، حتى ظهر ضوءٌ خافت داعب رموشه، برز القمرُ ليبعث نوره على المكان، أحسّ أنّه يواسيه.. أنّه يخاطبه.. يخبره أنّ النور طاغ على كلّ ظلمة مهما اشتدت.

نهض من مكانه، وعاد إلى سيارته نحو منزله..

لمّا بزغ ضوء الصباح، نهضت جنان عازمةً على الذهاب إلى منزل عمها.. إلى مجد. فتحت هاتفها لتجد عدّة اتصالات من أحمد، أرسلت له: «أحمد، أنا ذاهبة إلى منزلكم، يجب أن أتحدّث مع مجد وأصالحه».. ثمّ أغلقت هاتفها وخرجت.

لمّا وصلته رسالتها اهتزّ قلبه، وعادت تخترقه الهواجس، فانتفض مسرعًا عازمًا على الوصول قبْلها ليستفسر من مجد ما بعثر ظنونه.. يدفعه الخوف من أن يخسرها من جديد.

وصل أمام منزله فخانته خطواته.. لم يستطعِ المواصلة، تفجرت داخله آلاف المشاعر، وعبرت صورٌ قديمة ذاكرته.. اشتاق لهذا المنزل الذي قضى فيه طفولته ومراهقته وجزءًا من شبابه.. هنا ترعرع أميرًا.. وها هو يعود إليه غريبًا مكسورًا..

عبر ممرّ الحديقة، في كلّ خطوة تجتاحه ذكرى، إلى أن وجد نفسه أمام باب منزله وجهًا لوجه مع والدته وأخته اللّتين كانتا تتناولان الإفطار في الحديقة. جمد في مكانه مختلطَ المشاعر.. هُما كانتا مذهولتيْن.. تكاد دقات قلبيهما تصرخ.. انتفضت أمّه كطائر جريح.. مشتْ نحوه تتعثر، ويداها على صدرها.. فجأة تعثرت وسقطت أرضًا.. أسرع إليها وجلس أمامها على ركبتيه.. أمسكت وجهه بيديها:

- أحمد.. حبيبي..

نظر إليها بحنان.. واحتياج:

- أمّي....

وكأنّها كانت تنتظر تلك الكلمة منه لتصدّق أنه هو ماثل أمامها بدمه ولحمه.. طفقت تشمّه وتقبّله.. تعانقه وتبكي..

جلسوا إثر ذلك ثلاثتُهم في غرفة الجلوس؛ الأمّ جالسة على الأريكة، ابنتها إلى جانبها، وأحمد أمامها جالسٌ على الأرض.. واضعًا يده في يديها يعصرهما بشوق..

- أمّي.. سامحيني.

كانت تبكي، تنظر إليه بتأثر وألم..

- أمّي، لماذا فعلتِ هذا بي؟ لماذا تركتني هذه المدّة محرومًا من سماع صوتك؟ هل هُنت عليك لهذا الحدّ؟

خرج صوتها نشيجًا متقطعًا:

- يا حبيبي، أنت قطعة من روحي، والله وحده يعلم كم تعذّبت في غيابك.. كنت أحترق في كلّ لحظة لا أراك فيها ولا أسمع فيها صوتك، لكني كنت مجبرةً على فعل هذا؛ خفت أن أفقدك، ألّا تعود إلى حضني مرة أخرى.. هجرتك كي تعود إليّ.. اصطنعت الغضب طمعًا في أن تعود طالبًا عفوي.. أنت ابني البِكر وأوّل فرحة.. كيف أنساك يا أحمد!!؟ أنت لا تهون مطلقًا..

أخذ يقبّل وجنتيها ورأسَها، وأعاد عليهما قصّة زواجه وسببه، وجعل من نفسه الضحيّة الوحيدة.. ثمّ انتفض قائمًا.. رأى التأثّر على وجهيهما، ثمّ غيّر نبرة صوته:

- أمي، لماذا سمحت بارتباط مجد وجنان!؟

زاد انفعاله وصرخ:

- أمّي أجيبي.. لماذا؟ لماذا؟!!

تكلّمت ليلى:

– أحمد، نحن ظننا أنك اخترت امرأة أخرى؛ لذلك...

– لذلك ماذا؟ أنتم هجرتموني.. قسوتم عليّ.. كنت أريد أن أتكلم وأفسّر ما حصل.. أن أتحدّث معكم، أن أسمع صوت جنان، وأطلب عفوها وتفهُّمَها.. أنتم مَن حرمتموني من الفتاة الوحيدة التي أحببت.. أنتم انتزعتم روحي لمّا أبعدتم جنان عني.. أنا لا أستطيع العيش دونها.. لا أستطيع..

أمّه وأخته كانتا تنظران في تأثّر كأنهما غير مصدقتيْن.. اقترب منهما:

– أنا لا أستطيع أن أعيش دون جنان. ثمّ أردف: أين مجد؟ أريد أن أتحدّث إليه..

صعقت أمّه.. قد حصل ما كانت تخشاه.. أكبر مخاوفها أن تتشتّت عائلتها.. وهذان ولداها يختلفان لأنهما أحبّا نفس الفتاة. أمسكت بيديه تترجّاه:

– أحمد.. حبيبي، أرجوك لا تتشاجر أنت وأخوك.. الآن فقط سأرتاح لأنك عدتَ.. لأن أبنائي إلى جانبي.. لن أتحمّل صدمة أخرى، لن أتحمّل رؤيتكما متخاصميْن..

التفت صوبها، وحكى لها كلّ ما حصل تلك الليلة باقتضاب، ثمّ اتجه نحو غرفة مجد، وهما لا تزالان في صدمة..

– أحمد.. صرخت أمّه..

التفت اليها:

– لا تقلقي، سأحلّ الأمر مع مجد، لن نتشاجر..

سمع مجد طرقاتٍ على الباب، حاول أن يستجمع طاقته، وأن يبدو صوتُه طبيعيًّا:

– تفضّل..

رفع رأسه ليراه أمامه.. أشاح ببصره عنه ولم يتكلم..

– مجد، يجب أن نتحدّث.

– ليس هناك ما نتحدّث فيه، لو سمحت يجب أن أبقى وحدي..

– لن أذهب قبل أن أقول ما عندي.

– إنْ لم تذهب أنت فأنا مَن سيذهب.

وهمّ بالخروج، فباغته أحمد وعانقه.. ظلّ مجد ساكنًا، ولم يبدِ أيّة حركة، وكأنه تحوّل إلى صخرة..

– أنت أخي الصغير، لقد كبرت أمام عيني، عشنا كلّنا تحت سقف واحد ولم يكن ليفرقنا أي شيء.. أنا لم أردْ جرحك.. لكن ما باليد حيلة.. لقد أعماني الغضب لمّا علمت.. إنها الفتاة التي أحببت وخطبتها قبل ذهابي.. وأنا

متأكد أنها لو سمعت مني حينها لانتظرتني وما غضبت مني مطلقًا.. أعلم أنك أحببتها، لكنها تحبّني أنا؛ لذا من أجلها.. من أجل سعادتها، حاول أن تنسى وتصرّف كأن شيئًا لم يكن.

ابتعد عنه. وأجاب:

– أنا لم أجْبر «جنان» على شيء، ولم أنتظر منها شيئًا.. أعلم أنّ لكلّ منّا الحق في اختيار حياته وتغيير قراراته.. لكن ما آلمني هو الخيانة.. ما قسم ظهري حقًّا هو الخذلان.. طعنتني جنان بلا مبالاة.. اتخذتما قراركما دون اعتبارٍ لي وكأني لا شيء..

– أنا أردت إخبارك، لكن جنان أصرّت على الكتمان حتى تسافر أنت، وحينها تخبرك لأنها لم تستطع مواجهتك. مجد، ما مرّت به جنان شديد عليها.. حاول أن تتجاوز ما حصل.. هي قادمة الآن إلى هنا لتعتذر منك، ستتعذّب إن لم تسامحها؛ فلتغفر من أجلها..

– لن أستطيع النسيان.. ولن أستطيع التظاهر. أخبرها أنّني سامحت أو أخبرها ما تريد، لا يهمّ.. أنا سأسافر اليوم أو غدًا على أقصى تقدير.. سأحاول أن لا ألتقي بها؛ لأني لا أريد رؤيتها، أو حتى رؤيتك..

أحسّ أنّه حقًّا يتألم، لم يكن أخاه.. بل كان شخصًا آخر.. أراد إقناعه بالبقاء لكنه يعلم أنّ رحيله الأفضل..ابتسم وقال:

- أتمنى لك السعادة يا مجد أينما كنت، ستظلّ أخي، وسأنتظر عودتك وقد نسيت كلّ شيء.

ابتسم ساخرًا وهمّ بالخروج.. فتذكر أحمد ما جاء لأجله؛ فسأله:

- مجد.. البارحة قلت لجنان إنك أخفيت عنها الحقيقة لأنك أردت حمايتها.. ماذا كنت تقصد؟

أجاب دون أن ينظر إليه:

- أنا على دراية بكلّ علاقاتك منذ كنت مراهقًا، حتى لمّا كنت هنا ومع جنان كنت تخونها، حتى لمّا ذهبت لفرنسا علمت أنك كنت مدمنًا على الزنا.. لم أخبر «جنان» أنك كنت تريد العودة لها ولم أخبرها أيضًا أنك لم تتوقّف عن خيانتها. في الحالتين كانت ستبتعد؛ لذا أخفيت عنها حقيقةً كانت أفضل من إخبارها بأخرى..

خرج وتركه منكسرًا مذهولًا، أحسّ بالضعف والإحباط كما لم يحسّ من قبل.. ولأوّل مرّة أحسّ بالصغر أمام أخيه، أحسّ بالوضاعة أمامه، وحمدَ الله لأنه لم يلتفت ليراه على تلك الحال.. لم يرَ ملامح الذلّ على وجهه..

رحل مجد يوم غد، لم يعد للمنزل إلّا صباحًا ليودّع أمّه وأخته، ولم يلتق بجنان أو أحمد.. لم يكن قادرًا على رؤيتهما معًا.. حاملًا جرحه معه وتاركًا وراءه كلّ الذكريات.

مع الأيام، تقبّل الجميع ما حدث، وعادوا إلى حياتهم الطبيعية.. استطاع أحمد إقناع جنان بأنّ مجد قد سامحها، ووضعوا موعدًا لزفافهما.

مجد:

«الحرمان أن أفتقدك بعد أن نزفت روحي لأجلك مطولًا.. أن أراك فرحتي المنتظرة، تختالين أمامي بضحكتك التي تبعث النشوة بأركاني.. أن أحلمَ بك وأحلم، ثمّ يهديك القدر لي حقيقة فأسخر من الحلم.. ها قد صارت حقيقة.. لن أحلم بعد اليوم.. سأطبق أهدابي بقوّة وأنام بعمق.. لن أحلم توقًا للواقع الذي سيجمعنا.. والآن، عاد ذلك الحلم كابوسًا يؤرّق ليلي.. أحبّك يا جنان، أحبّك يا قاتلتي ولم أستطع كرهك.. هذا القلب اليائس المكبّل بالخذلان لا يعرف غير حبك.. أنا الآن المحاصر بين اللاجدوى والتفتّت والوجع والخيبة.. أنا الآن سجينٌ يفكّر بالهرب وسأهرب من عينيك.. لعلّ ثقل الهمّ تخفّ وطأتُه على نفسي، ولعلّ زمنًا لا أراك فيه يبدّد عتمتي..

أتعلمين؟ أنا لم أغِرْ من رؤيتك معه بقدر غيرتي من رؤية ذلك البريق الجذّاب من جديد يفترش مقلتيك وأنت معه.. والذي عملتُ ما بوسعي لأعيده فلمْ أقدر.. أنا آسف وهنيئًا لك به.

كنت مقدّسة عندي.. لدرجة لم أستطع حتى لمسك..

في لحظة ما، بدا لي كلّ شيء قريبًا، ممكنًا وجميلًا.. كنت على وشك الفوز، على ضفة السعادة.. مددت يدي لأرتشف ماءها فتحوّل إلى سمّ حارق يغلي في جسدي فيتركني معلقًا بين موت ونصف حياة..

أنا الآن أقول لك كلماتٍ لم تسمعيها منّي من قبل وقد تتساءلين لمَ الآن؟ أنا أيضًا لا أعلم، غير أنني أحتاج للفضفضة إليك دون سواك.. أحتاج أن أكشف لك عن مكنونات روحي لمّا انتهى كلّ شيء..

كان لا بدّ أن أتكلم.. وقد أردت أن يكون أول إفصاح لي لك في غير هذا الموقف.. وأن يكون كبداية لا نهاية.. لكنّ كلمة القدر الأخيرة هي الفيصل. أؤمن بالقدر وأثقُ بحكمة الله.. ومهما يكنْ ففي كلّ ما يحصل لنا خير، ويكفي أن تكوني أنتِ بخير كي أكون كذلك..

لقد طاب جرحي.. جرح الخذلان، وها أنا أمامك صفحةٌ بيضاء من جديد.. لكنّ جرحَ فقْدك لا.. ولن يطيب.. أنا أعبّر لك الآن وأعلم أنّ هذا الأمر سيورّطني فيك أكثر.. لكنّي سأرتاح وسيرضى قلبي..

أنا أحببتك يا جنان منذ زمن، وكان تعلّقي بك بلا نهاية.. لكني لم أنتظر منك شيئًا، ولم يكنْ وقوفي إلى جانبك لغاية أو رغبة في نيل حبّك.. أقسم أنّني لم أهتمّ بغير إسعادك، ولو تطلّب الأمرُ مني وأدَ مشاعري بنفسي.. والموت لرؤيتك مع غيري..

أقسم أنه لم تكن لي يومًا أيّة نية في تفريقك وأحمد، وإن أخفيت عنك ما لُمتني عليه؛ فهذا كان لسبب..

حتى طلب يدك- وأنا على يقين أنّ بقلبك غيري- كان دوسًا مني على نرجسيتي كي أسعدك، أو على الأقل كي أغيّر فيك نظرة نقصٍ كنت تلقينها على نفسك، ولأثبت لك أنك بنظري جوهرة لا تُقاس بثمنٍ ولو خدشتها آلاف النظرات..

لم أكترث لأحمد؛ لأنك أنت مَن جرحت قلبي، لا لأني قد طمعت في حبّك، بل لأنّك كنتِ بنظري نقية إلى ما لا نهاية.. لكني خلقت لك كلّ الأعذار فنسيتُ أذيّتك ولم أنسَ حبّك...

أنا الآن غادرت لأفسح لك الطريق كي تضيئي دونَ أن أكون نقطة سوداء تعكّر صفو أيامك.. قد ترين هروبي ضعفًا، ولكني أراه في مصلحتنا جميعًا.. أكرر أنا لم أنتظر منك مقابلًا غير سعادتك، بل يكفي أني منذ رأيتك عرفتُ معنى الحياة.. مهما حدث ستظلّين بقلبي جوهرتي النقيّة وزهرتي التي تعطّر حياتي ولو حرمت من رؤيتها.. يكفي أن أعرف أنها لا تزال متفتحة وجميلة..

في الختام، تلك الليلة لمّا جئت إلى منزلك كنت أرغب بمفاتحتك بموضوع هامّ حول خالتك.. لقد أخبرتني يومًا أنك تتمنّين لو تقف على ساقها. منذ ذلك اليوم لم تغادر أمنيتك ذاكرتي.. لقد تواصلت مع أحد أصدقائي طبيب

جراح بالخارج، أرسلت له ملفّها وأخبرني أنّ فريقه قادرٌ على حالتها بإذن الله.. أنا على اتّصال به، وسوف يتّصل هو بكِ لمّا يحين الوقت.

بلّغي الجميع حبّي وسلامي؛ خالتك، وجدتك سلمى، وعمر، وصغيري يوسف. اعتني بنفسك، وأوصيك خيرًا بليلى.. كلّ تمنياتي لك بالفرح والهناء».

كانت قد قرأت الرسالة بعد شهرين من زواجها بأحمد.. تهافتت عليها المشاعر من فرحٍ ووجعٍ وحنين، ولم تستطع إمساك دموعها:

جنان:

«عزيزي مجد، لم أجد حسابك على الفيسبوك.. خمّنت أنك إمّا قمت بحظري أو قد حذفته. أردت أن أطمئن عليك وأراقبك من بعيد.. لمّا يئست؛ فكّرت بطلب رقمك من ليلى، لكني تردّدت إلى أن جاءني اتصال من صديقك الطبيب ليحدّثني عن موضوع خالتي.. لقد صدمت.. حقًّا أنا عاجزة عن التعبير.. كنت أنتظر فرصةً للتحدث معك؛ ففكرت بمراسلتك على الإيميل لشكرك.. ولمّا وجدت رسالتك نزلت دموعي بلا قدرة مني.

يا رفيق الدّرب وتوأم الروح، لمْ أكن أعلم أنني سأشتاق إليك لهذا الحدّ.. أفتقدك يا مجد للحدّ الذي يدمي عينيّ كلّما تذكّرتك وأنت الذي لا تغيب عن بالي.. لم أشأ أن نفترق بتلك الطريقة.. نحن لا ندرك قيمة أحبابنا حتى

يبتعدوا.. الكلّ اليوم إلى جانبي، وكلّ ما حولي كفيلٌ بجعلي أسعد الخلق، لكنّ فرحتي لمْ تكتمل وأنتَ في الغربة بسببي وقد فطرت قلبَك.. آهاتك طعنتني يا مجد.

أنا آسفة جدًّا ونادمة.. لكنْ ما باليد حيلة، ليتني لم أقبل منذ عرضت الزواج من المرّة الأولى؛ لمضى الأمر وعاد كلّ شيء لطبيعته.. لقد انتهى الآن.. لست وحدك مَن تتألم؛ أنا أيضًا أشقى لألمك.. أنت لا تزال تحتلّ مكانة عظيمة بقلبي وفراغًا كبيرًا في حياتي.. ليتك هنا كما كنت دومًا.. قرأت يومًا أنه بإمكاننا نسيان الحبيب لكنّ الصديق الحقيقي لا يُنسى.. أنا أوقن أنك ستحبّ يومًا من جديد، وستجد مَن تهبَك قلبها لأنك رائع.. أمّا أنا فقد خسرت صديقًا غاليًا تقتلني ذكراه.

سأظلّ أدثّرك بدعائي يا ذكرى لا تُمحى.. ويا شوقًا لا يتوب».

بعد عام..

اتّصل مجد بليلى عدّة مرات بعد عودته من العمل.. لم تجب. منذ أسبوع تتأخّر في الإجابة وتتحدّث باقتضاب. احتار.. منذ سفره وهي تتّصل به كلّ ليلة لتؤنس غربته، ليس مطمئنًّا بتاتًا. أعاد الاتصال فلم تجب.. لمّا يئس وهمّ بالخلود للنوم؛ فاجأته رسالة منها:

«مجد، لم أستطع التكلّم.. قلبي يؤلمني يا أخي.. بعد أن ذهبت أنتَ ذهب أحمد الآن.. ما حصل مُريع..

أحمد مصابٌ بالسرطان، أخفى عنّا مرضَه، حتى عن جنان. علمنا مؤخرًا، لقد ترك المنزل ولم يترك أي أثر.. قال إنه يريد أن يموت وحيدًا، وألّا يكون عبئًا علينا.. لقد تشتّتنا. عدْ يا مجد؛ أنا وأمي نحتاجك، ما عدت أتحمّل..»

عاد يقرأ الكلمات غيرَ مصدّق.. كاد يجنّ.. احتاج لعدّة دقائق حتى يستعيد توازنه.. داهمه البكاء وخيالُه لا يبعد عنه صور أحمد؛ كلّ الصور الجميلة.. كلّ الذكريات التي جمعت أخوّتهما، وراح يتمتم «إلّا الموت يا أحمد.. لا أريده لك مهما حصل.. لا ترحل.. سأعود يا أخي.. اصمدْ يا أحمد».

مرّت تلك السنة كنسمةٍ عابرة في سنوات حياة جنان.. صارعت خلالها الذكرياتِ المؤلمةَ وشتى المشاعر التي علقت بها قديمًا وأبت أن تنزاح عنها كليًّا.. بل كانت تداهمها في بعض المرّات، حتى تلك التي ينبغي لها أن تكون في قمّة الفرح.. تضيق نفسها للحظة.. لحظة أقوى من كلّ تلك الساعات التي تخالُ فيها أنّ الحزن نفي من دنياها.. تحدّث نفسها: «ما الأمر يا جنان؟ ها أنت قد حزتِ على كلّ ما يسعدك؟» فيخرج صوت من أعماقها: «أنت تكذبين، أنت لست سعيدة.. دائمًا هناك شيء ناقص في حياتك.. أنت عاجزة.. أنت لا تستطيعين الإنجاب.. لن تكوني أمًّا أبدًا.. لن تستطيعي أن تنجبي طفلًا لأحمد.. دورة عمرك مآسٍ مترادفة.. أنت عاطلة عن الفرح.. أنت مجرد جسد لا يمكن أن يعطي السعادة حتى لروحه.. لا يجلب سوى الحزن له وللمحيطين به..»

أيام زواجها الأولى كانت رائعة.. لم تفترق عن أحمد للحظة.. ظنّت أنّ كلّ شيء قد انتهى، لكن هيهات ليس بعد أن اكتشفت أنّ حياتها ليست سوى سلسلة متتالية من الخسارات.

بعد أشهر من الزواج، عادت هي وأحمد لروتين الحياة.. عادا للعمل.. كانت أوّل صدمة تلقّتها ابتعادَ يوسف عنها.. حبيبها المدلّل رفضَ الذهاب معها وفضّل العيش في منزل جدّتها وخالتها التي وقفت على ساقيها أخيرًا. لم يحبّ أحمد.. كان دائماً ما يسألها عن مجد فيغرزُ في صدرها- بحروف اسم مجد التي ينطقها متقطعة- إبرًا حادّة تخزّ ضميرها.. فتبتعد مستسلمة.. ابتعاد يوسف عنها جعل سعيرَ الأمومة ينهض فيها نارًا متوهجة، لتصرخ في وجه أحمد: «أريد طفلًا..».

كان قد أقنعها في بداية الزواج أن يؤجّلوا الإنجاب حتى يستمتعا بأيامهما معًا.. لكن عودة الروتين وفقْد يوسف وحنين الأمومة والحاجة لجسدٍ نقي وطاهر تحتضنه وتنسى به الماضي، وفكرة أن ترى مستقبلًا جديدًا ينمو أمامها؛ جعلها تتحدّى أحمد وتصرّ عليه.. ولمّا وافق ولم يتمّ الحمل أصرّت على الكشف.. كانت تريد الحمل بسرعة، تنتظر كلّ شهر أيّة إشارة تبعث فيها الأمل فلا جدوى.. وبعد الكشف اتّضح أنها عقيم، ولا يمكن لها الإنجاب.

انطلقت رحلة أخرى من الشقاء.. اشتعل فتيلٌ آخر من العذاب والألم..

ولّما استسلمت لقدرها الذي انتقاها ضحية.. بدأت علامات التّعب والمرض تظهر على زوجها الذي أحبّته بكلّ جوارحها.. أصرّت عليه أكثر من مرّة للذهاب للطبيب فرفض.. كان في تلك الفترة كثيرًا ما يحتضنها.. كثيرًا ما تشعر بدموعه على كتفها.. وأحيانًا تستيقظ صباحًا لتجد وسادته لم تجفّ من آثار البكاء.. ترى في عينيه حزنًا يزداد عمقُه مع الأيام.. يهمس في أذنيها وهي نائمة: «سامحيني».

واجهته ذاتَ مرّة، وسألته:

– لماذا؟!! بل أنت مَن يجب أن تسامحني.. قد أضفيت الكآبة على حياتك، وعجزت عن إعطائك أبسطَ حقوقك.. أن أنجب لك طفلًا!!

فيمسك بيدها:

– أنت كلّ حياتي.. لا أريد غيرَك فيها.. لا يعنيني وجودُ أي كائن بها سواك..

كلامُه يبعث فيها السلوى، لكن لا ينهي ألمها..

عاد يومًا إلى منزله متأخّرًا.. هي لم تتحرّك من أمام الباب تنتظره.. كلّما تأخّر دقيقة تعبث بها الظنون.. «أين أنت يا أحمد؟» تتساءل ناظرةً إلى السماء تارة، وإلى الباب الرئيسي تارة أخرى.. تتّصل به فتجد هاتفه مغلقًا..

أمّا هو، فقد كان يسير في الطريق محطّمًا منكسرًا.. كلام الطبيب هذه المرّة قتلَ فيه الأمل..

لم يكن مستعدًّا بعد.. الآن صار وجهًا لوجه مع ما كان يخشاه.. هرب منه بجميع الطرق، والآن لا مفرّ؛ الموت في طريقه إليه.. سيقيم ظهره ويوسّده التراب.

«نهوى الرحيل حين تنتهي كلّ حلول البقاء، نحمل على أكتافنا أوجاعَنا برأس مُنخفض وخطوات ثقيلة.. لم يبقَ أمامه حلٌّ سوى الرحيل حتى يدركه الموت.. يشتاق إلى جنان كثيرًا.. مازال يريد أن يحضنها أكثر.. أن يحبّها أكثر، وأن يبقى معها أكثر.. «لقد انتهى.. انتهى الخوف والانتظار والتمثيل.. انتهت هذه القصّة التي كتبتها بنفسك، وأجبرت الجميع على أن يعيشوا الأدوار التي وضعتها.. ظننتَ أنّك البطل.. لكنّك الضحية.. أنت الخاسر في النهاية.. وحدك أنت».

كان يحدّث نفسَه، والندمُ والعذاب يمزّقان جلده ويستقرّان في عظامه..

وصل إلى المنزل ليجدها أمام الباب جالسةً على الدّرج، وألقت برأسها على الجدار.. تعبتْ من الانتظار فغفَتْ.. شعور مؤلم كاد يهلكه تسلّل إلى قلبه: «كيف فعلت هذا بكِ يا جنان! كيف؟».

حملها بين ذراعيه، وأدخلها ووضعها على السرير.. استلقى إلى جانبها، وأخذ ينظر إليها ودموعه لا تكفّ على النزول.. طبعَ قبلةً على جبينها، ثمّ أخذ ورقة خطّ فيها بعضَ الكلمات ووضعها على الطاولة جانبها، وخرج..

استيقظت في الصباح منهكة، نظرت إلى جانبها لتجد مكانَه لا يزال فارغًا.. تذكّرت أنها كانت تنتظره البارحة.. قامت فزعةً تلهث بقوة وكأنها رأت كابوسًا.. بحثت عن هاتفها لتتّصل به وجدته مغلقًا.. تملكها الخوف.. رأت الورقة على الطاولة.. قرأتها لتخرّ فاقدةً وعيها... «فلتتذكّري دومًا أني أحببتك كثيرًا.. مهما حصل ومهما عرفتِ عني يومًا؛ حاولي أن تسامحيني.. أحتمل كلّ شيء في الحياة إلّا البعد عنك.. أنا مصاب بالسرطان، ولم يبقَ الكثير في عمري.. لا أريدك أن تشقي بسببي، لا أريد أن أموت أمامك.. مهما طال عمرك أو قصر؛ حاولي أن تكوني سعيدة.. هذه أمنيتي الأخيرة».

لمّا استفاقت كان الدّوار حادًّا.. جدران الغرفة المحيطة بها تراها تتمايل.. خالتها ستسقط عليها وترديها حطامًا.. تمالكت نفسها ووقفت.. تمشي بلا اتزان.. تمنع نفسها من الوقوع حتى خرجت من البيت.. شرعت تجري حافية، غير عابئة بالطرقات المزدحمة ولا صفّارات السيارات ولا إشارات المرور.. تجري وصدرُها يضيق أكثر وأكثر.. تختنق فتتوقف.. تصرخ ثمّ تعاود الجري إلى أنْ وصلت إلى منزل سلمى.. ارتمت أمامها تبكي وتصرخ لا تقوى على الكلام. ارتعبت سلمى.. لم تفهم شيئًا.. لم تعرف ماذا تفعل أو كيف تهدّئها؛ فاحتضنتها وشاركتها البكاء رأفة بها، تنتظرها حتى تهدأ لتعرف ماذا أصابها!!

بعد لحظات، كانت تحكي ما جرى لسلمى وعمر.. لمّا انتهت، أخذت تقبّل يدَ عمر وتترجّاه أن يجد أحمد. لم تكفّ عن البكاء، ولم يستطيعوا جعلها تهدأ؛ فاضطرّ عمر إلى حقنها بمخدر حتى تنام.. ثمّ خرج عازمًا البحثَ عنه تاركًا سلمى إلى جانب جنان تدعو لها بحرقة وشفقة.

لمّا استيقظت كانت هادئة.. كأنّ شيئًا لم يكن؛ ممّا أثار مخاوف سلمى، كانت سلمى تحاول التحدّث إليها، لكنها كانت تجيب بالصمت وأحيانًا بابتسامة فاترة.. رفضت الطعام.. فقط أمضت النهارَ تصلي وتدعو.. لم تفارق سجادتها للحظة. وفي المساء، أخبرت سلمى أنها ستذهب لبيت عمّها.. حاولت سلمى إقناعها بالبقاء الليلة لكنّها رفضت.. عانقتها وقالت:

– حبيبتي سلمى، شكرًا لكلّ ما فعلته من أجلي.. لقد أتعبتك كثيرًا، الآن يجب أن أكون قوية، سأواجه قدري بنفسي، سأذهب إلى سوسة، يجب أن أكون إلى جانب ليلى وحماتي من أجل أحمد.. سأكون قوية من أجله.

وخرجت تاركة سلمى وراءها تدعو لها، وكلّها رجاء بأن يرفع الله عنها هذا البلاء.

مرّ أسبوع كامل ولا أثر لأحمد.. عمّ الحزن قلوبَ الجميع، وها قد انضمّ إليهم مجد.. عاد مرغمًا خائبًا يعتصره الشوق والوجع.

لمّا وصل إلى تونس تردّد في العودة إلى منزله.. كان على خبر بأن جنان هناك.. لم يكن قادرًا على رؤيتها، ولا حتى رؤية أمّه وأخته.. لن يطيق رؤيتهم يتألّمون؛ فقرّر الذهاب إلى منزل سلمى وعمر، كان هو نفسه يحتاج إلى مَن يخفّف عنه ويواسيه، ولن يجد أفضل منهما.

لمّا وصل إلى المنزل ورأته سلمى؛ فرحت كثيرًا، كانت على يقين أنّ وجوده سيكون مفيدًا لجنان.. كانا يتحدّثان يواسيان بعضهما ويتشاركان الحِمْل، حتى جاء عمر الذي يقضي اليوم باحثًا في المستشفيات عن أحمد أو عن خيطٍ يوصلهم إليه.. أبدى سرورَه هو الآخر لرؤية مجد لكنّه كان مرهقًا جدًّا؛ لم يستطع إخفاء توتره وألمه.. تدرك سلمى أنه حزين من أجل جنان.. لكن اليوم خصيصًا لم يكن عاديًّا. أخذت تلحّ عليه أن يتكلّم إنْ عرف شيئًا، فلم يجد بدًّا من الاعتراف.. كان الخبر ثقيلًا جدًّا عليه، لكنه كان مضطرًّا..

التفت نحو مجد، وقال:

– مجد، مِن حسن الحظّ أنك هنا.. لن أستطيع التحمّل وحدي.

تسارعت دقاتُ قلوبهم، وأجابت سلمى:

– عمر، أرجوك تكلّم، ماذا حصل؟!

– سلمى، مجد، نحن مجبرون على أن نكون أقوياء من أجل جنان..

نظر مجد وسلمى لبعضهما عند سماع اسم جنان، وهتفا معًا:

– ما بها جنان!!!؟

– حسنًا أصغيا إليّ.. خلال بحثي عن أحمد فكّرت في أنه قد يبقى في أحد المشافي.. أعطيت صورته لأحدِ الأصدقاء كي يبحث عنه، وجده في أحد المستشفيات قد فارق الحياة منذ يومين، وهُم بصدد البحث عن عائلته إذ لم يحمل معه هويّته.

ما أن أكملَ حتى سمع شهقات سلمى، أمّا مجد فقد وضع رأسَه بين كفّيه، وسُمع له نشيجٌ وكلمات غير مفهومة..

أكمل:

– مجد، تماسك من فضلك، ليس هذا كلّ ما لدي، ما تبقى أقسى وأمرّ.. صحيح أنّ أحمد كان مصابًا بالسرطان، لكن وراء إصابته هذه مرضٌ آخر.. مرض قدمَ به من فرنسا وهو سببُ وفاة ابنه وطلاقِه من زوجته كذلك، وهو السبب الذي جعله يمنع جنان من الإنجاب..

نظرا إليه باستغراب وذهول، سألته سلمى بصوتٍ خافت يملؤه الحزن:

– عمر، إنّ جنان عقيم؛ هي لا تنجب.

– هذا ما قاله لكم أحمد، لكن جنان سليمة..

ارتفع صوته واشتدّ، وأكمل:

– جنان كانت ضحيّة لأحمد، هو جعلها تتناول أدويةَ منع الحمل خلسةً وأوهمها أنها عقيم.

قامت سلمى من مكانها، واقتربت من عمر:

– عمر، ما الذي تقوله!؟

أمّا مجد، فقد ظلّ ينظر لهما وقد ازدادَ احمرار عينيه..

– سلمى، لقد عرفت هذا منذ يومين، ولم أتمكّن من إخبارك حتى أتأكّد من الأمر. ذهبت إلى جنان، وطلبت منها عيّنة من دمها لأني أشكّ في إصابتها بفقر الدم، واكتشفت بعد تحليله آثار حبوبٍ مانعة للحمل.

صاحت سلمى:

– ولماذا؟! لماذا يفعل أحمد هذا؟! وما السرّ الذي يخفيه؟ تكلّم يا عمر...

أجاب بصعوبة بالغة:

– أحمد مصاب بالسيدا منذ أن كان في فرنسا، وقد نقل العدوى لجنان، ولهذا منعها من الحمل كي لا يموتَ له طفل آخر..

انطلقت صرخةُ وجع من صدر سلمى.. سقطت على إثرها تنتحب، كانت تلطم وجهَها وصدرها وهي تصرخ.

– حقير.. نذل.. لا أصدّق كيف يفعل هذا بحبيبتي!! كيف يفعل هذا بصغيرتي!!

أمّا مجد، فقد شرع يبكي بهستيريا كطفل أبعدوه عن حضن أمّه، حاول أن يتمالك نفسَه فلم يستطع.. كانت الصدمة أقوى منه، كان ما سمعه شنيعًا

مقرفًا.. أحسّ برغبة في التقيؤ؛ فذهب للحمام، لمّا أفرغ ما بجوفه نظرَ إلى وجهه في المرآة لم يعرفْ نفسه.. وبانفعال، ضرب المرآةَ بيديه فتناثر الزجاج مهشّماً.. وخرج والدّماءُ تسيل من يديه. وجد سلمى قد هدأت، لكنّها لا تزال تحيا تأثير الصدمة.. صرخ فيهم عمر:

– يكفي.. تماسكا.. الأمر شديد علينا جميعًا، فماذا عنْ جنان؟ ليس لها سوانا.. يكفي ما مرّت به المسكينة.. علينا أن نصمد لأجلها.

جاءه صوتُ سلمى جافًّا من البكاء:

– لن تتحمّل.. ستموت المسكينة قهرًا.. لقد وهبته حياتَها وأحبّته أكثر من نفسها، وهو قتلها دون رحمة.. لن تتحمّل!!

– لن تعلم. أجاب عمر، وأكمل:

– لا يزال مرضُها في بدايته، مع الدواء ستعيش حتى ٤٠ عامًا.. مريض السيدا يمكنه أن يعيش طبيعيًّا مع الدواء إنْ كان مرضه في بدايته.. وقد خطّطت للأمر، سأخبر جنان أنه إثْر تحليل دمها اتّضح أنها تعاني من فقر دم حادّ.. سأضع لها دواءَ السيدا في علبة دواء آخر كي لا تكتشف الأمر، وستتناوله على أنه دواءٌ لفقر الدم.

التفتَ إلى مجد ليراه لا يزال واقفًا، والدماء تقطر من يده:

– مجد، اصمد.. سيظلّ مرض أحمد وجنان سرًّا بيننا، مسئوليتنا عظيمة الآن.. أمّك وأختك تحتاجانك، أنت رجلُ البيت الآن. وجنان ستمرّ بها

فترة عصيبة الآن، يجب أن نكون معها وأن لا نتركها للألم.. فلنجمع ما بقي لنا من قوّةٍ لتغيير قدرها المشئوم..

– أنا السبب في ما حصل لجنان..

– لا تقلْ هذا يا مجد، ليس ذنبك.

– بلى.. كنت أعلم أنّ ذلك الحقير زانٍ، كان يخون جنان منذ زمن، لكني لم أخبرها.. لو أخبرتها لَمَا حصل لها هذا.. أنا السبب وسأفعل المستحيل من أجلها.

بعد ستة أشهر..

اتّجه مجد نحو منزل جنان، ويوسف يمسكه من يديه مسرورًا برؤيته.. هي كانت قد عزلت نفسَها في منزلها منذ جنازة أحمد.. أصرّت على أن تعيش هناك وحيدةً حتى آخر عمرها، كانت سلمى تزورها دائمًا وأحيانًا خالتها لأنها كانت مشغولة بالاعتناء بأمّها التي تقدّم بها العمر، وبيوسف..

رآها من بعيد جالسةً على العشب في الحديقة، وعيناها معلقتان في السراب.. لم ترَ يوسف منذ وفاة أحمد؛ لذا فكّر في أنّ جلبه لها سيغيّر من مزاجها، اقترب منها يوسف ووضع يديه الصغيرتين على عينيها.. سرتْ في جسدها قشعريرةٌ باردة ودقّ قلبُها، كان يوسف قد ابتعدَ عنها منذ زواجها بأحمد، ظنّت أنها خسرته.. وضع يديه الصغيرتين على عينيها، أبعدت يديه

عن عينيها برفق، والتفتت لتجده هو ينظر إليها بعينيه الصافيتين، بحبّ من جديد احتضنته بقوّة وهي تبكي.. ثمّ التفتت لترى مَن أحضره فوجدتْ "مجد" ينظر إليها ويبتسم، فرحت.. بعد أن ظنّت أنّها نسيت الفرح.. لم تستوعب كيف دخل الفرحُ إلى قلبها يومها! قضت كاملَ اليوم مع يوسف ومجد، كسرا قيود وحدتها ودلفا إلى قلبها ليملآه سرورًا.

استأجر مجد منزلًا قرب منزل جنان كي يظلّ إلى جانبها.. وعاد يوسف للعيش معها.. كان يزورهما كلّ يوم، ويحاول إخراجها من يأسها وإحباطها.

ذاتَ يوم سألها يوسف «أختي، أنت ومجد ستتزوّجان، صحيح!؟ احمرّ وجهها وتسارع نبضُها ولم تجب.. كانت تلك خطّة مجد.. هو مَن طلب ذلك مِن يوسف كي يعرف ردّة فعلها.. أوصى يوسف بأنْ يكرّر لها السؤال دومًا..

لمّا قرّر مجد، ورأى أنّ الوقت مناسب؛ ذهب إلى سلمى وأقنعها بأن تعرض أمر الزواج على جنان.. صُدمت في الأوّل، ورفضت خوفًا عليه وهدّدته بإخبار جنان الحقيقة عن مرضها، لكنّه لمّا شرح لها خطته؛ وافقت مجبرةً لمّا رأت إصراره.. أقنعها أنّ ما يفعله من أجل جنان، تحتاج مَن يكون إلى جانبها دومًا يسهر على دوائها بانتظام، ويحميها من الألم وتقلّبات الدنيا..

لمّا عرضت عليها سلمى الأمر ارتبكت، لم تظنّ يومًا أنها ستفكّر في رجل آخر غير أحمد، خاصّة بعد وفاته، وها هو قلبُها الآن ينبض لغيره.. لكنها رفضت لأنّها مازالت تظنّ أنها لا تنجب، ولا تريد تحطيم حياته.. لكنّ سلمى أخبرتها أنّ "مجد" على علم وهو يريدها ويريد أن يكون أبًا ليوسف، ثمّ ختمت قائلة:

- جنان، إن لم يكن لأجلك فمِن أجل يوسف.. يحتاج أبًا له، سيكبر ولمّا يعرف حكاية أمّه وأبيه سيتألم كثيرًا، وهو شديد التعلّق بمجد؛ سيكون أبًا رائعًا له.. ستكونون عائلة رائعة.

لم تصدّق ما سمعته من سلمى، أحقًّا مجد يعرض عليها الزواج؟! أحسّت أنها في مهب القدر، تتغيّر أقدارها باستمرار، وتفاجئها الحياة في كلّ مرّة.. لكن لا.. لا يمكنها أن تقبل، لمّا رأته شعرت بدقّة عنيفة وفرحت كثيرًا لعودته وبقائه إلى جانبها، يسعدها ويشعرها بالأمان، لكنها لن تكون أنانية معه، هو يستحقّ الأفضل (لن تقدر على منحه أطفالًا) أخذت هاتفها، وأرسلت له «انسَ الأمر.. لقد أخبرتني سلمى وأنا أرفض، لماذا تضحّي من أجلي دائمًا!؟ أنت أفضل مَن عرفت في حياتي، ولن أحرمك من عائلة». وصلته رسالتها فقرّر أنّها اللحظة المناسبة ليخبرها بما خطّط له، شعر بالضعف وهو يكتب رسالته.. تعرّق جبينه.. كان الأمر قاسيًا عليه.. أن يتخلّى عن رجولته ويدّعي العجز.. فكّر أن يتراجع (لكن مشاعره نحوها كانت أشدّ من كلّ شيء) عليه

أن يضحّي من أجل أن يكون معها، مِن أجل أن يحميها.. كان هذا الحلّ الوحيد كي يحمي نفسَه من الرفض، ويجعلها توافق ولو شفقة به، لا يهمّ.. المهمّ أن يكون معها... كتب:

«جنان، أنا أحببتك منذ الطفولة، ولا أزال.. وربما معرفتي بعقمك هو ما دفعني لطلب يدكِ الآن؛ لأنني لن أقدر على منحك أطفالًا أيضًا، تعرضت لحادث منذ رحيلي، ولن أقدر على ممارسة علاقة زوجية، سنتزوّج على الورق فقط، مِن أجل يوسف، كي تكون له عائلة، لا تحرميني من أبوة يوسف، نحن متشابهان يا جنان، ونحن نتّفق كثيرًا، وربما قدّر لنا هذا كي نكون معًا من أجل يوسف».

هالها الأمر، وحزنت لأجله.. لكنها اطمأنّت للأمر في داخلها، لأنها تريد أن تكون دومًا مع مجد، فهو يغرقها باهتمام تحتاجه كلّ امرأة، وهو يستطيع انتشالها من حزنها كلّما انتابها، لا يملّ أبدًا من إغراقها بالاهتمام، ويجد دائمًا طريقة لإسعادها.. يمكنها أن تكون معه دونَ أن تسلّمه جسدها.. وأنْ تظلّ وفيّة لأحمد وتمنح يوسف أبًا مثلما منحها الأمومة دونَ أن تحسّ بالنقصان والذنب كلّما التقت عيناها بعيني مجد.. لكنّ إحساسًا غريبًا بالسعادة نبع من ذاتها، لا لأجل يوسف، ولا لأنّها ستردّ مزايا مجد بقبولها طلبه.. بل لأنّها ستكون برفقة مجد دائمًا.

أرسلت له: «أنا موافقة».

بعد ثلاث سنوات..

كانت جالسة مع يوسف في غرفته تراجع معه دروسه لمّا جاءت سلمى لتزورها، كانت سعيدة وطلبت منها اللقاءَ على انفراد؛ لأنها ستخبرها أمرًا سيغيّر مجرى حياتها.. تبعتها سلمى إلى حديقة المنزل، وقلبُها يخفق بقوة..

جلست سلمى أمامها، وأمسكت بيدها، وبدأت حديثها:

«حبيبتي جنان، اسمعيني جيدًا، ولا تجيبي حتى أنهي حديثي.. أنا ومجد وعمر خطّطنا لأمر ولم نشأ إخبارَك حتى نتأكّد من أنّ كلّ شيء سيسير بخير.. أنت ومجد.. يمكنكما الإنجاب».

قاطعتها جنان بذهول:

- ولكن هذا مستحيل...

- لا شيء مستحيل يا جنان، لقد أخبرنا مجد بضعفه، وقام صديقُ عمر بالفحوصات اللازمة، ستأخذ بويضة منك ونطف مجد، وسيتمّ الإخصاب خارج الرّحم، وبعد ذلك نعيده ليعيش في رحمك.. وستنجبين طفلًا رائعًا.

كانت تقف أمام المرآة.. تتحسّس بطنها المتكوّر، تنساب في جسدها الواهن قشعريرةٌ دافئة كلّما وضعت يدَها على رحمها الذي امتلأ أخيرًا.. لم تكن تريدُ التعلق، فاضت فيها الأمومة مع الحبّ الذي استعمر قلبَها من جديد، وبقوّة..

أفعمتها هذه المشاعر بسعادةٍ مخيفة، لم تعرف مثلها يومًا.. لم تكن تخشى الفراق؛ لأنها أدركت أنّ هذا الحبّ عظيم إلى حدّ الخلود.. وإن فنيت الأجساد.

لا تزال متشبّثة بقرارها.. متيقّنة أنها فعلت الصواب للمرّة الأولى في حياتها، رغم أنّ هذا الحبّ.. هذه البهجة.. وهذا الأمان موجودان حقيقة، والعالم صار بين قلبها ورحمها.

كانت قد شفيت تمامًا من كلّ السلبية التي وقعت في بترها يومًا.. وها هي الآن شامخة، تراقب الوجود بافتتان، وتتأهّب للرحيل بعد أن وجدت نفسَها وارتشفت من منبع الحبّ حدّ الثمالة.. حدّ الارتواء.

الآن، عليها أن ترحل إلى الموت، كي تنبثق من موتها حياةٌ ستكون حاضرة فيها روحًا وحبًّا..

أحسّت بيدٍ حانية دافئة على كتفها، اليد التي منحتها الحياة بأسرها بسخاءٍ وبلا مقابل، استدارت نحو مجد، وعيناها تشعّان بغموض ودفء.. ناولها كوبَ قهوة، ابتسمت له وكادت تبكي.

كانت تريد أن تحتضنه، للمرّة الأولى والأخيرة، أنْ تصرخ"أحبّك".. حبًّا لا منتهيًا.. حبًّا كاملًا بلا وصف.. حبًّا يواجه العناء والألم، ولا يقف في وجهه شيء.. أحبّك وأريدك.. هل سأقولها يومًا؟

باتت تصارع الدقائق.. لا يثقل صدرها سوى الكلمات التي لم تستطعْ إخراجها، يجب أن تخبره قبل أن ترحل، لكن هل ستتحمّل رؤية الألم على وجهه؟ ستخبره إذًا بعد أن ترحل بطريقةٍ ما.. ستخبره لترتاح روحُها وتسكن.. وليبقى هذا الحب حيًّا لن يدفن معها.

يجبُ أن يعلم..

رأى مجد بعينيها سحرًا غريبًا.. غموضًا.. نظرةً جديدة عليه.. لكنها تعصف بكيانه.. هو يدرك كلّ نظراتها، يفهم لغةَ عينيها منذ ثلاث سنوات، كانت تنظر له باحترام بتقدير وبحنان.. لكن هذه الأيام، كأنّ في نظرتها إليه شيء غير عادي.. لكنه لذيذ.

- جنان، هل أنت خائفة؟ سألها.

- لا..لا أبدًا.

- يجب أن ترتاحي جيدًا، غدًا سينتهي تعبُ الحمل، وستحملين ابنتيك في أحضانك.

- نعم.. معك حقّ، سأنام الآن.

كانت كلماتها مقتضبة، صوتُها فيه نشيج خافتٌ تشوبه رقّة..

منذ زواجها لم يتشاركا غرفةً واحدة.. كانت تنام مع يوسف، وينام وحده.. كان يتجنّب البقاء معها وحيدين.. كان يخشى أن يضعف أمامَ جَمالها الفاتن الذي يزداد كلّ يوم، وسطوة أنوثتها التي تزيده فيها رغبةً وعشقًا.

امتناعُه عنها كان لأجلها، لا لأجله.. لم يكنْ يخشى الموت ولا المرض.. كانت رغبتُه تحرقه، لكنه يقاوم.. يخشى أن تنقلَ له مرضها الذي لا تزال تجهله، أو هكذا يظنّ..

ظلّ سالمًا، وبصحة جيدة ليرعاها.. يجب أن يظلّ قويًّا وواقفًا على قدميه كي يسندها إذا تعثرت..

يظنّ أنّ الصبر من أحسن الصفات، لكنّ صبره عليها كان قاتلًا.. كان يقتله ويعذّبه شوقًا..

الآن يمتلكها جسدًا كما امتلكها روحًا وجوارًا.. يسائل نفسه: إلى متى الصمود!؟

ما عاد قادرًا على تجنّبها أكثر، كان يحبّها بكلّ قدرة وطاقة يملكها، وكان يخشى فتنتَها بقدر عشقه لها.

سمع طرقاتٍ على باب غرفته، لم يصدّق.. لكنه نهض لفتح الباب، كانت أمامَه بفستان نومِها الأبيض وضفيرتها الذّهبية كأنها ملاك.. سألها:

– جنان، هل أنت بخير؟!

– لا تقلق.. أنا بخير، أنا خائفة قليلًا.. هل يمكن أنْ أنام إلى جانبك الليلة!؟

اضطرب.. ارتجف.. وخرج صوتُه دون أن يفكّر:

– نعم.. نعم.

استلقت إلى جانبه.. تشبّثت به، ووضعت رأسَها على كتفه، وأغمضت عينيها.. قالت في نفسها: "أنا سعيدة لأنك موجود، ولأنّني تزوّجت منك.. أنا أحبّك يا مجد.. حبًّا ليتك تدرك عمقَه". كان يشعر بحرارة جسدها الفاتن، وجودُها إلى جواره ورأسُها على كتفه وذراعُها تحيط به كطفلة؛ يشعره أنّ في قلب زلزال.. في فوهة بركان تغلي حممُه، وتتناثر على جلده.. كان فريسةً لرغبات قوية.. ثقيلة..

جسدُها المكتمل الأنوثة يلتصقُ به، وأريجُ شعرها يداعب حواسّه، وهو ثملٌ.. في عوالم بعيدة؛ حيث لا زمان ولا مكان، حيث هُما والحبّ فقط.

التصقت به بقوّة أكثر، تشعر أنها وجدت وطنَها، أنّها انصهرت فيه..

سمح ليدِه بمداعبة شعرها، وتساءل: «هل الحبّ هو كلّ هذا العذاب؟!».

أخرجته من شروده بسؤالها:

- هلّا حكيت لي حكاية؟ ثمّ أضافت: لا تسكت حتى أنام.

في الصباح، كانت تتشبّث بيده بقوة. الجميع كانوا هناك في المصحة، ينتظرون دخولها لغرفة الولادة.. كانت تريد أن تظلّ معه وحده.. أن تملأ عينيها بملامحه الطيبة، أن يكون آخر كائنٍ تراه وتحمل صورته معها.. إلى الأبد.

«تعال معي.. أريد أن أستنشق بعض الهواء». تبعها إلى الحديقة الخلفية، حيث لا أحدٌ سواهما.. نزلت دموعها متمرّدة عليها.. انفطرَ قلبه، مسح عبراتها بيديه، وقال:

– سيكون كلّ شيء بخير.. صدّقيني.. لا تخافي.

– أنا لست خائفة، أنا فقط.. فقط... أحبّك.

لم تنتظرْ رؤية تعبير وجهِه لتصدّق أنها قالتها أخيرًا، بل ارتمت في حضنه بقوّة لتشعر بدقّات قلبه العنيفة، وجد نفسَه في حضنها.. وجد معنى الحياة الذي افتقده.. والسعادة التي لا يمكن أن توصف.. أراد أن تدوم هذه اللّحظة إلى الأبد.. إلى الأبد.. همس:

– وأنا أحبّك أكثر من نفسي، وأكثر من أي شيء في الحياة.. يا حبيبتي.

لم يخرجهما من نشوتها إلّا صوت سلمى تبحث عنها..

– جنان، يجب أن تدخلي؛ الطبيب في انتظارك، هيّا حبيبتي.

نظرت لمجد، وقالت له كلماتِها الأخيرة:

– ستكون سعيدًا يا مجد، وستكون أبًا رائعًا.

ثمّ التفتت نحو سلمى، وقالت لها:

– وأنتِ ستكونين أمّا لبناتي مثلما كنت أمًّا لي.

ثمّ ذهبت دونَ أن تلتفت، وهما وراءها..

ألقتْ نظرة على الجميع قبل دخولها كأنّها تودّعهم، استقرّ بصرُها على مجد، ابتسمت له ثمّ دخلت.

ظنّ أنّ طعم هذه المرارة لن يزول أبدًا، حسبه لصيقًا به كحبّه القاسي.. يتنكّر وقوع الخبر عليه:

"آسف.. لقد ماتتْ أثناء المخاض. كان مخاضها صعبًا، لكنّ المولودتيْن بصحة جيدة"

وقعَ منذ ذلك اليوم في وحدةٍ وحشية وألمٍ ثقيل كحجر قاسٍ رزح على صدره.. طوّح به في أقاعٍ مظلمة لم يجدْ فيها رحمةً بروحه المنفطرة..

بذل كلّ الدموع والوجع، لكنّ روحه مازالت تشكو حرارةَ الألم وإنْ نفذت دموع عينيه.

كان وحده في بؤرة عاصفة، وقد انهدم كلّ شيء حواليه..

لقد ماتت حبيبته بعد أنْ داوت جروحه القديمة.. ماتت تاركةً إيّاه في ليلٍ كئيب ليس له نهاية، كان وجودها إلى جواره هو ترياقَ الحياة.. والآن خبتْ هذه الحياة وخبا هو في صمتٍ مُثقل بالقهر.

كانت قد أحبّته.. قالت ذلك بنفسها.. بكلّ جوارحها، ثمّ رحلت عن الوجود، وظلّت حاضرة بقوّة في ذاكرته وروحه وقلبه..

منذ شهرين وهو حبيسُ البيت، يلجُ غرفتها كلّ ليلة ليلقي بنفسه في فراشها البارد، تواسيه رائحتُها التي لا تزالُ عالقة به؛ فيبكي بمرارة. رحلت بسرعة.. بقسوة.. والفراغُ الذي تركته عميقٌ.. شديد.. لا يُحتَمل.

لكنِ اليوم خيّل إليه أنها عادت.. أنها لم تمت. وأنّ حبّها الصادق لا يزال موجودًا ينتشله من الغرق ويعيده إلى الحياة.

كان قد ترك يوسف والبنتيْن عند أمّه، وسجَنَ نفسَه في منزله ينتظر الموت.. عساه يأخذه إليها، لكنْ لم يدرِ اليوم لمّا فتح هاتفه الذي أغلقه منذ ذلك اليوم الكئيب؛ تدافعت الرسائل من أصحابه وأمّه وأخته. شدّت انتباهه رسالةُ عمر: "مجد، يجب أن تفتح صندوق البريد، هناك رسالة لك من جنان، تركتها قبل موتها بليلة.. تركتها عند الطبيب وقد ظهرتْ براءته من موت جنان.. له توقيع منها يثبتُ قبولها إنجاب الطفليْن رغم معرفتها بالخطر المُحدق بحياتها.. وقد أخفت الأمرَ عنّا.. عدْ يا مجد.. لقد ضحّت بحياتها لتمنحك أطفالًا.. عدْ من أجلها، ومن أجلهم.

"جنان".. واختلطت حروفُ اسمها بماءٍ مالح سقطَ على شفتيه.. أسرع إلى صندوق الرسائل في الحديقة.. فتح الباب فأوجع ضوءُ الشمس عينيه، لكنه تقدّم.. بحث عن الرسائل، وعاد إلى بيته وفتحها.. وجاء صوتُها بعيدًا وحنونًا.

«إلى صديقي وزوجي وحبيبي، إلى مجد، إلى مَن به تعلّمت معاني عظيمة، وإلى مَن معه ارتقتْ حياتي إلى مصافّ المثالية..

مجد، لا أعلم مِن أين سأبدأ؛ فكلّ حروف الأبجدية، بل كلّ لغات العالم لا يمكن أن تعبّر عن مكانتك في قلبي..

مِن أيّ طينة أنت؟ لّما عشتُ معك تيقنت أنّ حديث الأربعين شبيهًا لا يمكن أن يكون صحيحًا؛ لأنّه لا يوجد لك مثيل..

لقد عرفتُ حقيقة مرضي، يا مَن وجوده في حياتي كان دوائي مِن كلّ داء.. تحيةَ إجلالٍ وإكبار لك إلى قلبك القوي، إلى كلّ تلك الشجاعة، وإلى التضحية التي كدتَ تدفع حياتك ثمنًا لها، أتعلم أنّني سامحتْ "أحمد"، وسامحت أبي، وسامحت كلّ مَن ظلمني يومًا حتى مَن انتهكوا عرضي؟ أنتَ علّمتني كيف أسامح.. بل استحيت ألّا أسامح وفي حياتي نعمة لا تقدّر بثمن هي أنت.. شككتُ في مرضي واستطعتُ معرفته ومعرفةَ كلّ الحقيقة من الطبيب.. لم أبكِ على نفسي، بل بكيت خجلًا منك.. أوهمتني أنّك عاجز جنسيًّا، وطلبت مني أنْ أصبر معك.. فعلتَ ذلك وكنت أظنّ أنّني أضحّي من أجلك وسعيدة في الآن ذاته لأنّني أساعدك.. وظننتُ أنّي بذلك أكفّر عن ذنبي تجاهك سابقًا.. لكن في الحقيقة أنت مَن كان يضحّي لأجلي..

عشتَ معي طوال هذه الفترة وحرمتَ نفسك من حقّك في الزواج، وفي أن تكون أبًا من أجلي.. تحرص على دوائي.. وعلى صلاتي.. وعلى إتمام

دراستي والتألّق.. ولم تكتفِ بي فقط، بل أغدقت على يوسف بحبّك وطيبة قلبك أيضًا.. لم أفهم حبّك يا مجد.. ولم أقدّر مشاعرك.. قد لا تصدّقني إنْ أخبرتك أنّي سعدت لابتلاء الله لي بهذا المرض الذي لم أشهرْ به حتى الآن؛ لأنّي رأيت فيه كفارة لذنبي نحوك.

لقد أحبّني أحمد.. لكنّه حبّ تملّك وأنانيّة، وشتّان بين حبّك وحبّه.. تعلّمت منك أنّ الحبّ أخلاق قبل أن يكون شهوة وتضحية.. قبل أن يكون احتياجًا، وعطاءٌ قبل أن يكون طلبًا.

كنت أمرّ بغرفتك ليلًا، فأسمعك تناجي الله وتبكي.. ظننت أنّك تشعر بالضعف والخجل من عيبك المصطَنَع.. لكنّك تبكي لأجلي وتدافع شهوتك، تصلّي وأسمعكَ تدعو الله وتطلب منه الصبر.. ظننتك تطلب منه أن يمنحك الصبرَ على ابتلائك، لكنّك تطلب منه الصبر على شهوتك..

في أوّل مرّة خطبتني فيها منذ سنوات، كان همّك الوحيد أن أحبّك.. وبعد زواجنا صار همّك أن أكون سعيدة حتّى لو لمْ تسمعها منّي.. لا أعلم كم سأعيش معك، وهل سأخبرك قبل أن أموت، أم لا!!؟ أم ستظلّ الكلمة تخنقني وتأبى الخروج حتى أموت!!

لكنّي لن أخبرك أنّي اكتشفتُ الحقيقة كي لا تحزن من أجلي وتظنّ أنّني أتألم.. كما أني لن أتظاهر أمامك بالسعادة لأنني حقًّا سعيدة.. كما لم أسعدْ في

حياتي يومًا يا قرّة عيني.. أخجلُ أن أقول بأني أحبّك لأنّ هذه الكلمة أقلّ من أن تعبّر عن مشاعري لك.. لو كان لي ألفُ حياة أخرى لتمنّيت أن أعيشها معك إلى آخر رمق.. ألف مرة.. مجد، قد علمت كلّ شيء، وقد أحببتك قبل أنْ أعرف الحقيقة، بل إني أحبّك منذ بعثت فينا الروح؛ لأنك قدري، لأنّك موجود داخلي منذ جئت للدنيا، لكنّني ظلمت نفسي وظلمتك. موتي أفضل لكلينا؛ لأنّي أرغب بك كما ترغب بي، ولا يمكنني أنْ أجتنبك أكثر يا حبيبي. وسأظلّ معك.. بقلبك أحيا. مجد، تركت لك قطعةً من روحي، أعلم أنّك ستحتضنها كلّ عمرك؛ الفتاتيْن ويوسف.. عشْ سعيدًا.. عش سعيدًا أرجوك؛ ففي سعادتك تبعث روحي من جديد.

.. ستكون زوجي في الدّنيا والجنة بإذن الله.

سنكمل كما بدأنا هناك؛ حيث لن نحزن.. ولن نبكي.. ولن نفترق..».

كان يموت كلّ ليلة لينهض جثةً بلا روح، ويعود إلى احتضاره في الليلة الموالية. لكنه اليوم شعرَ ببعض من الحياة تعود إليه، وصرخت نفسُه بنداءات محرقة، وألفى نفسه يناديها محتضنًا رسالتها..

تذكر الأمانة.. تذكر يوسف وابنتيْه اللّتين لم يرهما حتى.. اعتراه شوقٌ لاذع لأنْ يراهما ويقبّلهما.. أخذ هاتفه ليتّصل بأمّه.. وجد عدّة رسائل منها، فتح إحداها..

«مجد، صغيري، تعال يا حبيبي، لا أريد أن أخسرك أنتَ أيضًا.. بناتك في حاجة إليك.. صرت أنسى كثيرًا، وبتّ أخشى عليهما. ويوسف.. إنّه يتألم ولا يكفّ عن السؤال عنك.. تعالَ فما عدت أتحمّل هذا الألم».

انتفض كأنّما عادت روحه إلى مستقرّها.. انتابه خوفٌ من المجهول.. كيف سيعتني بالطفلتيْن؟ يمكنه الاعتناءَ بيوسف، لكن ليس بهما، ولا يمكنه الوثوق بأيّة مربّية.. وعليه أن يعود لعمله من أجلهم.

تذكّر سلمى.. المسكينة لا بدّ أنها الآن تتألّم أيضًا. وعائلة جنان.. لقد نسيهم، سيعود قويًّا ليواسيهم. من أجل جنان، سيتحمّل وسيعود للحياة.. وجاءت لباله فكرةٌ ستخفّف الألم عن الجميع.

* في الغد، كان يصعد الدّرج إلى بيت سلمى، يحمل طفلةً بين ذراعيه، ويوسف إلى جانبه. اضطربت مشاعره، وخشي ملاقاة سلمى، يعلم أنّها هشّة.. وأنّها تحبّ "جنان" حدّ الأمومة، لا يعلم كيف ستتقبّل الأمر، وكيف سيمسك دموعَه أمامها!! فتحت البابَ بعد طرقات متتالية، يعلم أنها لوحدها الآن؛ عمر في العمل، وهي استقالت بعد وفاة جنان.

كانت قد تغيّرت كثيرًا، لم يكدْ يعرفها، غزا الشيّب كاملَ رأسها، وجحظت عيناها، تفاجأت لرؤيته، همّت بالكلام فلم تستطع، نظر إليها وقد اغْرورقت عيناه:

- مرحبًا سلمى.

- أهلًا مجد، تفضّل بالدخول.

جلست أمامه، وأجلست يوسف إلى جانبها تداعب شعرَه..

كان مظهرها مؤثرًا، وغاصًّا في صمت كئيب، استقرت نظراتها على الطفلة التي تنام في حضنه، راودتها رغبةٌ شديدة في رؤية وجهها واحْتضانها، في أن تشمّ رائحتها، لكنها لم تقدر..

أدرك مجد أنّ عليه أنْ يتكلم، أنْ يلج الموضوع دون مقدمات، ولا ينتظر مبادرتها إذ يبدو أنّ الحزن قد غيّرها.. غيّرها كثيرًا..

- سلمى، أعلم ما تحسّين به الآن، لكن يجب أن نصمّد من أجلها.

لم تجبْ، فأكمل وقد نهض ليضعَ الفتاة في حجرها، ارتجفت أوصالُها، وشهقت..

- لا.. أبْعِدها؛ لا أستطيع..

وأخذت تبكي.

أجاب:

- لن آخذها، تستطيعين. لقد ضحّت جنان بحياتها لتنجبها، وأنا لن أستطيع الاعتناء بهما وحدي، أخذتُ أختها لجدّة جنان.. هي والخالة

ستعتنيان بها، كادتا تموتان حسرةً على جنان، لكنّهما سرَّتا بإحضاري الفتاة لهما، وهذه الطفلة أنتِ مَن سترّبّينها.

تسارعت دقّات قلبها، وقبل أن تنطق.. قام من مكانه، وأخذ يوسف وخرج، تاركًا إيّاها في ذهول.

– سأعود غدًا لأحضر حاجياتها، وسأزورك دائمًا لأطمئنّ على ابنتي.. نور.

كادَ قلبها يخرج من صدرها لسماع اسمِ الفتاة. ابتسم وأضاف:

– جنان اختارت أسماءَ البنات قبل رحيلها.

أخرجها من شرودها صوتُ الباب يُقفل، امتدت يدُها للفتاة وداعبت وجهَها بأناملها، في حنوّ طهر روحها من أدرانها، وتنكّرت الرجاء في صوت جنان قبل المخاض..

«ستكونين أمًّا لبناتي مثلما كنتِ أمًّا لي..»

تمّت

مع تحيات

دار البشير للثقافة والعلوم